ذكريـــات خنفس الرّوث

جَمِيعُ الحُقُوق مَحْفُوظَة

عنوان الكتاب: ذكريات خنفس الروث

المؤلف: لعجرود إبراهيم الخليل

تعاونية الفلاح، العلمة ولاية سطيف
البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr
الهاتف الثابت: 036.48.00.17
النقال : 0777.23.38.83
واتساب: 00213777233883

ISBN : 978-9931-762-92-8
D.L : 03-2020

لعجرود إبراهيم الخليل

ذكريــات خنفس الرّوث

الماهر للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2020

إهـــداء

إلى أمي و أبي و إخوتي...
إلى أسرتي الفتيّة...
" إنني لا أجد لنفسي سنداً سواكم، تراها الدنيا مظلمة في الخارج.. ولا مأوى لي سوى أحضانكم الدافئة.."
إلى البراعم الصاعدة: منّة، يوسف، أسيل، غسّان، أركان.
حفظكم الله ورعاكم جميعا.

أوه، يا لهؤلاء القصّاصين! بدل أن يقصّوا على الناس شيئًا ينفعهم و يمتّعهم، ينكبّون على فضح جميع خفايا الحياة وأسرارها!...(لو أستطيع)، لمنعتُ عنهم الكتابة!... تصوّروا معي: ما النتيجة التي قد تترتب عن ذلك؟! حين يقرأ المرأ ما يكتبه هؤلاء، ينكبّ بشكل غير إرادي على التفكير... وإذا بكافة الأفكار العجيبة و الغريبة تحلّ بذهنه!... لا، أنا بحقّ، كنت سأمنع عنهم الكتابة. كنتُ سأمنع عنهم نشر أي شيء ممّا يكتبون.

الأمير ف. ف. أودويفسك

نوفمبر 2002..

أنا اليوم في الخامسة والثلاثين من العمر، متقاعد طبقا لقانوني الخاص أي أنني لا أتقاضى معاشا عن السنوات التي عملتها، أمضي معظم وقتي في غرفة كئيبة موحشة بين النوم والجلوس على السرير جلسة المريض، بينما جزء من الوقت أمضيه في اليوغا خاصّتي، أي الجلوس على كرسيّ وإشعال أكبر عدد ممكن من السجائر وممارسة التفكير، وقتل الذباب المزعج. لقد زاد وزني ببضع كيلوغرامات وأصبحت كقطعة سمينة قذرة، إنني كسول إلى درجة لا أستطيع حمل حصى صغيرة من الأرض، ويبدو لي ربط خيوط الحذاء عملا شاقا جدا، وأنا مدرك كل الإدراك بأن الكسل رذيلة وطبع شائن وما من مرءٍ يحب لنفسه أن يكون كسولا، لكنني ومع هذا أشفق على نفسي ويحزّني اعتبار نفسي كسولا بالمعنى المعروف، لا لسبب سوى أنني صادق بالفعل بكسلي هذا، وعندما أخبرتكم بأنني أعجز عن حمل حصى من الأرض فإنني لم أبالغ في وصف حالتي، بل إنني بحق أشعر بالإجهاد وبأنّ جسدي فعلا غير قادر على تنفيذ أوامري. يا له من شيء مؤسف .. أن يعجز المرء عن وصف ما يشعر به..

ومهما يكن، فإنني مدرك كذلك بأن كسلي مرتبط بشكل أو بآخر بنفسيتي، فنفسيتي مريضة ومليئة بالقذارات وهذا ما أثّر على قواي الجسدية، وإنني أعرف كذلك بأن نفوس البشر مليئة بالقذارات، وأنهم لن يصدقوني إذا أخبرتهم بذلك، بل سيلومونني لأنني صرّحت بهذا، ولو اتفق يوما أن وصل العلم إلى اختراع جهاز يرصد

كل ما بداخل النفس البشرية بتفاصيلها الدقيقة، حتماً لن أصاب بالذهول من كمية القذارات التي سيكشفها، لكن الجميع سيصابون بالذّهول إذا ما كشفوا أنفسهم على ذلك الجهاز، سيصابون بالذّهول للحد الذي يجعلهم يرفضون تقبل نتائج الكشف، وسيعلنون بكل كبرياء وحماس، بأن الأمر لا يعدو كونه خرافة، وأن هذه الأجهزة تافهة و غير دقيقة، بل قد يصل بهم الأمر لتدمير تلك الأجهزة تدميرا شاملا، لأنها كشفت جزءًا مهمًا منهم.. جزء يعملون جاهدين لإخفائه، حتّى عن أنفسهم..

ترى لماذا يكره المرء أن يعرف حقيقة نفسه؟

إني لأجد كلّ المتعة في معرفة حقيقة نفسي..

والواقع أنّ أولئك الذين يرفضون معرفة أنفسهم عن كثب، هم أشخاص محبّون لأنفسهم ومحبّون للحياة، لأن الذي يحب نفسه ويقدّرها، محب للحياة بالضرورة، وهم محقّون برفضهم هذا... محقّون إلى حد بعيد، لأن الذي يخترق نفسه حتمًا سيَرى كل القذارات المتخزّنة هناك، والذي يرى تلك القذارات في نفسه سيراها في كل المحيطين به، وإنه ليراها ويلامسها واضحة حقيقية وليس مجرّد انعكاس لما رآه في نفسه، ذلك أن النفس البشرية واحدة ولو تعدّدت الأجساد، وبعد كل هذا فأيّة لذة للعيش بقيت لديه إذن؟

إنهم لمحقّون برفضهم هذا.. فأيّ امرئٍ عاقل هذا الذي يترك النعيم ويختار الجحيم.

لكن ماذا لو افترضنا أن الحقيقة تكمن في الجحيم؟ أي أننا ملزمون بأن نعترف لأنفسنا بطريقة أو بأخرى بأن الشرور في النفس هي الأصل، وأن الأفعال الخيّرة هي في الواقع استثناءات لا غير، وأن جميع الناس الذين يعتقدون أنفسهم خيّرين هم في الحقيقة وحوش أشرار غير مدركين لحقيقتهم، أو قد يكونوا مدركين لنزعتهم الشّرورية لكنهم مع ذلك يخفونها، يخفونها بالكذب على أنفسهم، لأن هذا الإخفاء يمنحهم بعض الارتياح والرضا، فيذبحون الحقيقة بذلك قربانا للوهم، من أجل العيش بضعة أيام تحت مظلّة النعيم..

يا للّعنة.. قد يصاب المرء بالانهيار لمجرّد أن يفكر مثل هذا التفكير، هل من الممكن أن يكون السّواد الأعظم من الناس يعيش في الوهم، وهم يعتقدون بذلك كل الاعتقاد بأنهم يعيشون الواقع الحق؟

إنني لأخجل من نفسي أيها السادة، عندما أدخل محل بيع الخضار في حيّنا، أخجل من نفسي عندما يقابلني بالترحيبات والابتسامات العريضة، صوت ما بداخلي يخبرني بأن البائع كان بابتساماته وترحيباته الحقيرة تلك مدفوعا بدوافع مصلحية بائسة، ورصدها غير متاح لأيّ كان وحتى هو يجهلها في الواقع، والحقّ أنه بالفعل يجهلها، والمعضلة كلها مبنية على الجهل، أي أن البائع في قرارة نفسه يعتقد بأنه كان عفويا معي بابتساماته وتشكراته ،وهو صادق في ذلك، بيد أنه كان مدفوعا في نفس الوقت بدوافع بائسة.

وإلّا، فعليه أن يفسّر لي سبب تجهّمه من تلك العجوز التي طلبت منه أغراضا على سبيل القرض، وإن عجز عن ذلك فليضع بمحلّه مرآة

ضخمة ليراقب من خلالها تقلّبات وجهه، أو ليذهب إلى الجحيم.
إنها نكتة بائسة توحي بأن كاتبها ذو نفسية مريضة.. حسنا
ما زلت مصرًّا على أنني أجد كل المتعة في معرفة حقيقة نفسي، رغم أن ذلك سبّب لي ألماً.. ألماً عظيما.. لأنني بهذا قد اخترت الجحيم، وتلك المتعة حالت إلى جحيم.. أنا أعترف الآن أن تلك المتعة قد حالت إلى جحيم، لكن الجحيم أهون عندي من ذبح الحقيقة وتَبنّي الوهم مكانها، بل الحق أنه ليس لدي خيار غير الجحيم، وقد يقول قائل ما أدراك بأنك في جحيمك هذا بالفعل تداعب الحقيقة؟ إنه لسؤال وجيه أيها السادة، إذ لا يجوز لي بحق أن أحتكر الحقيقة وهذا هو السبب الذي جعلني أنكب في عزلتي كالسلحفاة، لأنني فشلت في الإمساك بها، وقادني فشلي هذا إلى الشك في نفسي و في كل من حولي، إنه ليخالجني شعور أحيانا كثيرة بالعجر.. العجز عن الإحاطة بالحقيقة إحاطة كاملة وحولي كل هذه المتناقضات، حتى تراني عاجزا عن اتخاذ أبسط القرارات، وهذا ما جعلني أعتبر نفسي مريضا أكثر مما أعتبر نفسي مثقفا، ولولا أنني لم أعتقد مثل هذا الاعتقاد لما قبلت لنفسي محبسًا بين أربع جدران، ولما اخترت لها عزلة مؤلمة جعلتني أفكر أكثر وأشبعتني كآبة للحد الذي كرهت فيه نفسي، وإني لا أدري هل كرهي لنفسي هذا تولّد بناءً على حقائق مشينة ومرعبة اكتشفتها في نفسي أم أنه مرتبط بطريقة تفكيري ومعالجتي للأمور، والواقع أنني بالفعل اكتشفت أمورا بائسة عن نفسي وأن نفسي هذه أفسق وأفجر مما تتصورون!، أتعلمون أيها

السادة إلى أي حد؟ للحدّ الذي جعلني أحتقر جميع الناس، وأنّ احتقاري للناس لم يكن إلاّ لأنني احتقرت نفسي قبل ذلك، احتقرتها عندما ضبطتها على حال التّلبس في العديد من المرّات.

لكنني ومع ذلك، ولأكون صريحا وصادقا، فإن احتقاري للناس قد تلاشى وزال وتحوّل إلى شفقة، وشفقتي اتجاه الناس لم تكن لتنبع من كرم أخلاقي، بل من استكباري ونرجسيتي، لأنني اعتقدت اعتقادا راسخا حينها بأنني فهمت نفسي فهما كاملا وبات بإمكاني فكّ شفراتها وتحليل القذارات التي تنبثق عنها، فأرى نفسي بذلك قد ارتقيت فوق الجميع، فأنظر إليهم نظرة الطائر إلى الأرض، وأقول في سريرتي يا لهم من مساكين إنهم لا يدركون.. لا يدركون كم تحمل أنفسهم من فجور، ولذلك... ومن أجل ذلك فهم معذورون.

على أنني وفي بعض الأوقات يتسرّب إليّ ذلك الشعور باحتقار الناس إذا حدثت معي واقعة معيّنة أشعر معها بأنه لم يُقدّر شخصي ومشاعري كما يُفترض، أو كما كنت أنا سأقدر مشاعر هؤلاء الأشخاص لو كنت مكانهم، فما إن أنكبّ في عزلتي حتى أبدأ بالتفكير في تلك الواقعة، فأوشك على ضرب رأسي في جدار، وقد يصل بي الأمر لأكثر من ذلك، هل تدرون أيها السادة في هذه الحالة ما هو الأعنف من أن يضرب المرء رأسه في جدار؟ هو أن يراوده شعور يجعله يشكّك في نفسه و في صحة منظومته الشعورية.. إنه شعور أعقد وأصعب من عدد الكلمات التي قد تستخدم لوصفه.

آه..آه لكم كان يقتلني الشك حول مضبوطية مشاعري، حول ما إذا

كانت مشاعري بمختلف أشكالها.. فطرية حقيقية أم وهمية ومشوّهة بفعل الزمن، وإني لأجد بعض العزاء في الأولى، وفي كلاهما الكثير من الألم.

لقد أقدمت مرّة على ضرب رأسي في جدار، وقد بلغ بي الغضب يومها حدّ الجنون، عندما أهانني شرطي في مقر البلدية، لا لشيء سوى أنني طلبت منه معلومة، إذ كنت أعتقد بأنه مكلف بالاستعلامات، غير أنه خاطبني بلهجة حادّة لأنه شعر بالاستياء.. الاستياء من كوني جعلته في منزلة سفلى باعتقادي أنه موظف استعلامات، فمضى يداعب قبعته الرسمية ويخبرني أمام الناس بأنه مكلف بالأمن، وأنه هنا لحمايتي إذا ما تعرّضت لأذى أو لاعتقالي إذا ما ارتكبت جُرمًا، وقد أراد كسري وإذلالي من خلال هذا، وقد أذلّني بالفعل... لأنني شعرت بالمذلة، وأهانني أمام الناس.. وإنني لم أنطق حينها كلمة واحدة، بل رحت أصطنع ابتسامة حقيرة بائسة أحفظ بها ماء وجهي، ثم جرجرت جسدي إلى منزلي وحاولت ضرب رأسي في جدار، بدل أن أخوض معه نقاشا ينتهي بحفظ كرامة كل منّا، لكنني ومع ذلك اخترت ضرب رأسي في جدار.

ومهما يكن، فقد عانيت الكثير من الأزمات النفسية والشعورية ومهما كانت فعاليتها قوية على روحي إلاّ أنني تمكنت على الأقل من إخفائها أمام الناس.. وقد كنت أخفي تعاستي وبؤسي وانكساري مدفوعا بنبلي الفطري، لكن هذا الإخفاء والتكتم على حقيقتي عندما امتزج بعواطف نبلي الفطري ولّد لي شعورا أكثر خزيا وأكثر دمارا

من المشاعر السابقة.
الصّمت والخجل.. فإن اعتبرتم الخجل قيمة أخلاقية يعبّر عن الدّماثة وطيب الشمائل فإنني حتماً لست كذلك، لأنني بخجلي لم أكن أبدا أريد أن أقول لمن حولي من الناس بأنني إنسان دمث وطيّب بل كنت أنشد من وراء خجلي السلام، ولا شيء غير السلام، فكل الذين حدث وأن خجلت أمامهم كنت أترجّاهم من خلال ذلك وبطريقة معينة بأن لا يؤذوا مشاعري، إنه ذلك النوع من الخجل الذي يبلغ بالمرء حدّ السذاجة.
آه يا أيها السادة إنني لا أدري كيف تصنّفون الخجل ضمن جدول الأخلاق، لكن الخجل رذيلة.. رذيلة أيها السادة، فالإنسان الخجول أوّل من قَبل لنفسه أن يكون مطيّة للطمّاعين المصلحجيين، قَبل لنفسه أن يكون درجة سلّم لغيره من الحالمين بالتفوق والصدارة وإني لأقرّ لكم بأنني وإن عَظُمت أسباب تعاستي يبقى الخجل وحده معضلتي في الحياة.. إنه معضلة.. معضلة بحق، فمع الخجل يجد المرء نفسه مجبرا على تنازلات ما كان له أن يلتزم بها لو كان يحتكم للعقلانية والمنطقية، إنه ذلك الشعور الذي يحتّم على المرء تمرير كل شيء ولو على حساب مصالحه المادية والنفسية.
مع أن خجلي هذا لم يكن لينبع من جبن أبدا، لأنني كنت أخجل أمام الضعفاء والأقوياء على السواء، إنما كان منبعه الحق "الإفراط في مراعاة مشاعر الآخرين" بالمعنى الذي يشبه الإفراط في التفهّم، أي أن أضع نفسي مكان الشخص الذي أمامي، فأجرّب شعوره في ذلك

الموقف، وأمتنع تباعاً لذلك عن كل تصرّف أعتقد فيه بأنني سوف أُحرجه أو أجرحه من خلاله، ولو كان ذلك على حساب مصالحي النفسية.

ففي مرة من المرّات اقتنيت بنطالا جديدا وقد كان مقاسه عريضا، ولمّا أخذته للخياط من أجل توضيبه، أخطأ ذلك الخياط اللعين وجعل البنطال قصيرا وكان يستحيل إرجاعه كما كان، وقد غضبت كثيرا حينها لأنني لم أكن أملك المال لاقتناء آخر، وبسبب خجلي المفرط لم أتمكن من توبيخه أو إبراحه ضرباً، لأنني وضعت نفسي (على سبيل الافتراض التخيّلي) مكان الخيّاط، وقلت لنفسي ماذا لو كنت أنا الذي أخطأت؟؟ وهذه هي المعادلة التي جعلتني فاشلا في كل الميادين.

لكنني اضطررت لارتدائه مع ذلك، لأنني لم أجد غيره لأرتديه، ثم إنه كان يلُوح لي أفضل من بناطيلي القديمة، وقد كنت وأثناء تجوّلي في الشوارع أنزل ببصري أحيانا إلى رِجلاي، فأشعر بالمقت الشديد، فتلوح لي كأنها قصيرة أكثر من المعقول، لدرجة أنني كرهت رجلاي يومها بسبب ذلك البنطال.

لتجدني أقرّ ثانية وبكل ألم، بأنّ الخجل أقوى شعور ساهم في تدميري، إذ جعل علاقاتي بالناس سطحية ومحدودة حتى أقرب صديق تجدني متردّداً في طلب شيء منه، بسبب الخجل الذي ما كان يُفترض أن يكون في مثل هذا النوع من العلاقات. لقد جعلني الخجل فقيراً معدما لأنني لم أتجرّأ يوما أن أطلب علاوة من مديري

أو ترقية أو أن أنجح في تكوين علاقات مع أشخاص ذوي مناصب راقية، رغم أنني كنت أتعامل معهم باستمرار، وسبب فشلي في تكوين علاقات رفيعة، راجع لبرودتي في التعاطي مع هؤلاء الأشخاص.

وقد استفحل هذا الخجل اللّعين في حياتي العاطفية، فلم أُحقّق علاقة مكتملة واضحة المعالم طيلة حياتي، لا لسبب سوى أنني كنت متحفّظا أكثر من المعقول، رغم أنني أعتبر نفسي عاشقا ورومانسيا وكل صفة تشتمل على الحب يمكن إلصاقها بي، لكنني أعتبر نفسي رغم ذلك عاشقا فاشلا، على أنّني ألتمس بعض العزاء لنفسي في الأوقات التي أشعر فيها بالقوة، فأعتقد حينها بأنني لم أتقاطع بعد مع الروح التي يتحقّق لي معها السّلام والانسجام. ورغم كل شيء.. ومع كل هذا، فيا ليته هذا الشعور اللّعين توقف عند هذا الحد من الدّمار، لقد تجاوز ذلك.. وتغلغل إلى نفسي وتفكيري وصِرت أتذكّر باستمرار في جلسات عزلتي كل المواقف التي خجلت فيها، فأجلد ذاتي لأنني لم أقل ما كان ينبغي أن يُقال، أو لم أفعل ما كان ينبغي أن يُفعل، أجلد ذاتي للحدّ الذي أحتقر معه نفسي، بل فوق كل هذا تجمّعت في ذهني تلك المواقف السيئة وأصبحت كُتل من الذكريات السيئة، وكان كل ما مرّ شريط ذكرى معينة على ذهني يُشعرني معه بالخزي من نفسي.. الخزي والعار.. الكثير من الخزي والعار.

لقد كرهت نفسي ..كرهت نفسي لدرجة أنني فكرت بالانتحار ذات يوم، لكنني لم أفعلها لأنني كنت أجبن من أن أنتحر، أو ربما لازالت

قطعة مني تنبض بالحياة هي التي منعتني من فعلها، و على كل حال فطالما لم تقتلني ذكرياتي السيئة، فسأعمل على قتلها.. فلتكن هذه القصة سمّا لكل ذكرى سيئة.

لقد مرّت أشهر طويلة وقلبي ممتلئ حقدا..

لكنني أشعر توًّا باللّذة.. لذّة النّصر.. فلنجعل هذه القصة نخبًا للنّصر.

شتاء 1994

لم يتبقّ سوى يوم واحد على موعد مناقشة مذكرة التخرج ثم بعدها على المرء أن يخرج للبحث عن وظيفة، لقد بدأتُ بالفعل أفكر في الوظيفة قبل التحصل على الشهادة بشكل رسمي، لأن الشهادة كانت مسألة أيام فقط، وأمر المذكرة كان غير مقلق كما هو غير حاسم.

همَمت بالتّوجه عند عمر أحد أصدقائي المقرّبين وهو شاب في سنّي يبلغ السابعة والعشرين من العمر، بهيّ الطلعة نقيّ القلب يمضي أغلب يومه في دكانة أبيه الذي يمتهن تجارة الأواني المنزلية. عمر هو الصديق الوحيد الذي باستطاعتي أن أخبره أشياء بائسة عني دون أن أجد حرجا في ذلك، وهو الوحيد الذي يمكنني البوح له بمكنونات نفسي وتلك المشاعر التي يشعر المرء بالخجل من نفسه حينما يبوح بها، كنت أحدّثه بشأنها دون أن أشعر بأنه سيحتقرني ببوحي له، ففي مرة من المرّات طلبت منه أن يقرضني مبلغا من المال ولمّا سلّمني المبلغ وصفت له حالة مشاعري وأنا أقترض المال، صوّرت له حالتي أثناء تفوّهي بطلب شيء من الآخرين وكمية الخجل التي تقبض ملامح وجهي، وذلك الشعور بالدونية والخزي الذي ينتابني، بل أصرّيت على شرح الأمر بإسهاب لدرجة أبلغته فيها بأنني أتفهّم شعوره حينما يُقبل على إقراض أحد ما مالاً وأنه قد يكون هو نفسه بحاجة للمال أو أن الوقت لا يناسبه للقرض وربما يخشى طول مدة الدَّين، وقد كان متفهّما جدا وكل تلك المشاعر التي

أبعثرها حوله يتلقّاها بكل إنسانية و نبل.
ما إن وصلت عند عمر حتى قال قبل كل تحيّة:
- هات البشارة.
- خير إن شاء الله.
- نحن مدعوون لتسلم الشهادات اليوم، سنذهب إلى الجامعة بعد الظهر.
تعجبت وقلت له:
- مهلا مهلا.. لكن كيف؟ والمذكرة؟
- لا مذكرة ولا هم يحزنون، تمّ إلغاؤها وعدم احتسابها.
- إيه.. ومن أين لك هذا؟
سلّمني جريدة وأشار بسبّابته للإعلان..
- تفضل أُنظر..
قرأت الخبر وبالفعل كان كذلك، فرحت كثيرا لحظتها، بينما كان عمر منشغل بالزبائن جلست بالخارج كان كرسي خشبي موضوع هناك، وهو كرسي يعود للشيخ أحمد والد عمر.
الشيخ أحمد رجل هرم طاعن في السّن أقصى اهتماماته تنظيف الرصيف أمام منزله، وتغيير أقفال الباب ودكانته من حين لآخر، يقضي أغلب يومه في مراقبة أحفاده وعتابهم، ومراقبة تصرفات عمر كذلك، وعتابه باستمرار حتى من دون سبب، لأنه يعتقد بأن ابنه كسول وغير مسؤول.
كانت السعادة تغمرني كأنّني انتهيت توًّا من تشييد بناية كاملة، كنت

ألتقط أنفاسي كالمرهق الذي وضع حمله توًّا.. ثم بدأت بالشّرود رويدا رويدا.. راودني شعور بحزن قاتل... حزنت لأنني سأفارق الجامعة وستغدو أيام الجامعة مجرّد ذكرى من الماضي.. ستعمل الأيام القادمة على قتل كل الكائنات التي كانت تشكّل عالمي في الجامعة.. سيتقاعد أستاذي المفضل ويموت الآخر.. ستتزوج تلك الفتاة التي كنت معجبا بها وتغدو أُمًّا موظفة أو ربّة بيت، وفي جميع الأحوال ستُحوّلها مشاغل البيت إلى آلة قبيحة.. وربما سألتقي بها صدفة في أحد الشوارع رفقة زوجها وأطفالها ولن تعرفني أو تعرفني لكنها ستتجاهلني خوفا من زوجها.. سأحنّ وأشتاق لرجل الأمن الذي كان يطلب مني إظهار بطاقة الطالب عند باب الكليّة.. سأحنّ لأشجار الصنوبر والتّوت المحيطة بمبنى الكليّة.. سأحنّ لكل شيء..

إذ ضرب عمر على كتفي قائلا: الحمد لله لقد عفانا الله من تلك المذكرة اللّعينة، إنك لا تتخيل كم كانت تبدو لي عقبة.. عقبة يا أخي ..

الآن لقد ارتحنا.. ارتحنا يا أخي.. ارتحنا من كل شيء ولن يجد الشيخ أحمد أيّة أعذار لتأنيبي، سأسكن الدّكانة ولن أبرحها وهكذا سأريحه، لقد كان يكدّرني دائما ويعتقد أنني أفتعل انشغالي بالدراسة كي لا أعمل بالدّكانة.. سأريح نفسي وأريحه إذن.

قال هذا ثم همّ بغلق الدكانة وأخبرني بأننا سوف نذهب إلى الجامعة.

ركبنا الباص وتوجهنا نحو الجامعة، دخلنا واستلمنا شهاداتنا، وإذ نحن نهمّ بالخروج راودني شعور بالرغبة في الجلوس قليلا قرب نافورة الكليّة، كنت أتفقّد كلّ شيء كما لو أنني أراه للمرّة الأولى حتى انغمس عقلي في رحاب الأيام الخوالي ومضيت في السرحان، وغُصت في الخيال، وصرت لا أعي شيئا في الخارج. راودني مزيج من المشاعر المؤلمة.. الفراق والوداع والحنين.. حتى أنني كتبت يومها من فرط ما شعرته من وجع: "لقد كان ذلك اليوم قاسيا بقدر ما كان ممتعا، وأنت تودع العرش بنظراتك البريئة وما تحمله من مشاهد وسيناريوهات من الأمس القريب، بروح هائجة وعقل محتار.. ليس لي بعدها من دار.. فعلى متنها انفتحت العيون، وعلى متنها كتبت روايات الحب، وعلى متنها انتهت، وعلى متنها انكشفت، وعلى متنها وضعت أحجار زوايا العقول، وبها تعلمنا أوقات الحركة وأوقات السكون.. مني السلام وإليك السلام يا أروع مقطع في حياتي..."

في الواقع ولأكون صادقا أيها السادة إنني لا أدري إلى أيّ مدى مشاعري صادقة وحقيقية اتجاه جامعتي وأنني سأحنّ إليها فعلاً، أم أنني سأحنّ إلى ذلك الجزء الجميل من حياتي الذي ذهب ولن يتكرّر.. أم أن حنيني المزعوم مرتبط فقط بتلك الفتاة الجميلة التي ستتزوج حتما، وعلى كل حال ومما لا شك فيه أنني بدأت فعلاً أستشعر الألم وأتذوقه حتى قبل أن يأتي موعد الحنين.

لقد جاء اليوم المنتظر.. اليوم الذي بدأت أفكر فيه جدّيا في الوظيفة، لقد بدأت في اقتناء الجرائد لتفقّد الإعلانات.. غير أنه كلما كنت

أتصل بالجهات المعلنة يتم إخباري بأن المنصب المقصود قد تم حجزه، فقرّرت إذن أن أبحث عن عمل بنفسي وفكّرت بأن أقصد الشركات والمؤسسات المتواجدة على مستوى مدينتي، وفي واحد من أيام شهر أكتوبر وقد كان يوما باردا غائما، ارتديت أفضل ما عندي من الألبسة ووضعت بعضا من عطر البلوشانيل المفضل لدي، وقد كنت محمّلا بالكثير من التفاؤل والثقة، وكانت تلك أغلى بضاعة أمتلكها.. أغلى بضاعة عند المحدودين ماديا أمثالي، ذلك أنّ اليأس مع المحدودية المادية يقود إلى الدمار من دون شك.

بينما كنت مترجّلا في الشارع الرئيسي للمدينة، لاحت لي لافتة كبيرة كُتب عليها "الإبداع" على شكل واجهة لمحل ضخم، اقتربت قليلا فلاح لي أن المحل يختص بصنع المواد الإشهارية الخاصة بالشركات، فقلت لنفسي متمتما.. دعنا نجرب علّنا نقتنص وظيفة مناسبة هنا.. إيه و لما لا..

بضعة خطوات حتى وجدت نفسي داخل المحل، كان ضخما بشكل لا يصدق، الكثير من الأشخاص يعملون على الحواسيب كان أغلبهم نسوة، وعلى الجهة اليمنى هناك كان موظف استقبال جالسا على كرسي قرب مدفأة يقرأ جريدة، وعندما رآني تقدّم نحوي مبتسما:

– تفضل، تفضل يا سيدي.

ثم بادر إليّ بالسؤال:

–بما نخدمك يا سيدي؟

-هذه شركة تصنع المواد الإشهارية صح؟
-أي نعم بالضبط وها هو ذا مكتب الإشهارات الإلكترونية مشيرا بإصبعه وعلى الشمال مكتب إيداع الطلبات، يمكنني أن أحرّر لك طلباً يا سيدي لو أردت، أو يمكنك أن تتفضل لهناك و تودع طلبك، تفضل تفضل..
قاطعته وقلت بنبرة فيها شيء من الخجل:
عفوا يا سيدي الكريم، أنا لم آتي هنا كي أطلب خدمة.. بل جئت باحثا عن وظيفة هنا، هل بإمكاني مقابلة المدير؟
رمقني بنظرة استطلاعية فضولية كأنه أراد من خلالها تمييز حالتي الاجتماعية، ولمّا تأكد في اعتقاده بأنني شاب بسيط تجهّم وجهه.. وقال ببرودة:
- المدير غير موجود عُد في وقت لاحق..
شحب وجهي من طريقة ردّه، وشعرت لحظتها بأنه يكذب لكنني تماسكت مع ذلك.
سألته عمّا إذا يمكنني ترك عنواني ونسخة من شهادتي من أجل أن يسلّمها للمدير حينما يعود..
تغيّر وجه الرجل كما لو رأى عفريتا، ثم بدأ يحرّك رأسه يمينا وشمالا كما لو كان مشغولا جدا ولا وقت لديه، وقال بلهجة مسرعة:
- هات.. هات..
سلّمته نسخة الشهادة وورقه عليها عنواني وخرجت، وكنت متيقنا بأنه لن يسلّمها للمدير أبدًا، سيخزنها في مكان ما في أحد أدراج

مكتبه الحقير أو ربما سيمزقهما بعد خروجي.. ملامح وجهه كانت تقول ذلك .

دخلت في دوامة تفكير، وتسرّبت إلى نفسي مشاعر الاستياء، وبدَا لي كأن الرجل طردني بطريقة معينة، كنت أعيد مشهد حواري مع ذلك الحقير وألوم نفسي عن الكلام الذي كان ينبغي أن أقوله لكنني سكتت عنه، يا لجبنك ويا لسذاجتك.. الخجل.. الخجل.. نعم.. هذا من سيقودك إلى الدّمار والهلاك.. لكنني أخجل كي لا أبدو متعجرفا متطفّلا على الآخرين، لطالما كنت خجولا لا لشيء إلاّ لأنني أتفهّم مشاعر الغير وأضع لها اعتبارا أكثر مما أضعه لنفسي هل بهذا أكون نذلا وجبانا؟..

لكنني ومع ذلك أنا مدرك.. مدرك بأنه كان يتوجب عليّ أن أحرجه بسؤال يتأكد لي معه بأن المدير حقًّا غير موجود.. فالرجل بدَت عليه علامات الكذب.. وكان ينبغي أن أخبره بأنني اكتشفت استياءه مني وهذا ما كانت تقوله حركاته وعيناه وكل شيء في جسده!

لكنني كتمت ذلك.. ولم أقل له شيئا منه.. كتمت ذلك بدافع الصدمة والذهول.. لأنني انصدمت من تحوّله المفاجئ عندما ظنني زبون في البداية، ثم عرف بعدها أنني طالب عمل.. أو ربما كتمت ذلك بدافع الخجل.. لأنني خجلت من نفسي في تلك اللحظة.. ربما.. لكن الخجل فضيلة وليس رذيلة ..نعم إنه ليس كذلك حتمًا.

عزمت في نهاية الأمر على أن أرجع يوم الغد وأن أقابل المدير مهما كلّف الأمر، وما دفعني للرجوع لم تكن رغبتي في الظفر بالوظيفة،

بل رغبتي الشديدة في الانتقام من ذلك الحقير، وبالفعل رجعت صباح الغد وللأسف تأكّد لي بأن المدير سافر في تلك الصبيحة، وقد عرفت هذا من موظف آخر، لأنني عندما دخلت هذه المرّة لم أُولي ذلك الرجل اهتماما، بل مضيت مباشرة إلى الداخل، و قدّمت طلبي لدى موظف آخر، بينما بقي ذلك الكلب يحملق فيّ بنظرات جبانة، وكنت أرميه بنظرات استصغار حتى وضع بصره بين رجليه، شعرتُ لحظتها بأنه أدرك حقارته وبطريقة ما جعلته يدرك حجم القذارة التي ارتكبها في حقّي بالأمس.

على أنني قرّرت بأن لا أعود هناك أبدًا حتى ولو اتصلوا بي، لأنني لم أكن لأقوى على العيش بين أُناس فيهم على الأقل واحد يمقتني كرجل الاستقبال ذلك، وهذه كانت من أشدّ اعتقاداتي النفسية.. وهذا كان من أكثر الاعتقادات التي ساهمت في جعلي فاشلا على الصعيد الاجتماعي، لأنني كنت دائما ما أفضل الانسحاب ولو على حساب مصالحي، بدل التورّط في علاقة تحتّم علي وضع خطة جديدة كل يوم، لقد كان ذلك يتعبني ويشقيني.. إنني أفضل العلاقات التي تتسم بالعفوية مهما كانت نتائجها.

لقد شعرت باللّذة في اللّحظة التي سمّرت فيها عيناي اتجاهه وأجبرته على أن يشعر بالخزي كما لو فرضت ذلك عليه فرضا، بينما لم يكن بوسعه أن يخفي شيئا من الحقارة التي ارتسمت على وجهه القذر، فلتشعر بنذالتك.. فلتدرك نذالتك.

هناك في آخر الشارع ومقابل حديقة أول نوفمبر وفي وسط الزحمة

والاكتظاظ، بدَت لي لافتة ضخمة رُسمت عليها يمامة بيضاء، كُتب عليها عبارة العزيز للبريد والمواصلات، انطلقت نحوها كالسهم، وقد شكَكت في بادئ الأمر بأنها قد تكون مؤسسة حكومية، ذلك أن المؤسسات الحكومية في بلادنا يكون التوظيف فيها بطريقة مغايرة، ويخضع لإجراءات معقدة، لكن بعدما تأكدت من الإسم الذي كانت تحمله "العزيز للبريد والمواصلات" تيقنت بأنها خاصة. وَلجتها و يا ليتني ما فعلت، فهنالك صنَع بؤسي أمجاده، هنالك قُتلت عفويتي.. كانت مقبرة أكثر منها مكان عمل.. إنها مذبحة الأحلام.. مذبحة الصّفاء والنّـقاء.. هناك في بيت اليمامة أين انسلخت من عفويتي.. أين تحطم حصن أخلاقي المنيع.

دخلت وألقيت السلام، تقدّمت بضع خطوات وكان يواجه المدخل غرفة على شكل قاعة استقبال صغيرة، وُضع فيها مكتب عليه جهاز حاسوب وكرسي كان فارغا، كان هناك فتاة ورجلان أحدهما يبدو كهل والآخر شاب يبدو في عقده الثالث قصير القامة و نحيل البنية، طريقة كلامه توحي بأنه موظف في تلك المؤسسة.. لم ألفت انتباه أحد.. كنت أتقدم نحوهم بخطوات بطيئة، كان ذلك الكهل يبدو في حالة غضب ومضى يتساءل بنبرة احتجاج:

- شهر! شهر كامل و لم تصل رسالتي؟ ..يا للّعنة..

بينما كانت تلك الفتاة تحاول امتصاص غضبه قائلة:

- لا تقلق يا سيدي سنعمل على إيصالها عاجلا إن شاء الله فقط استرح ولا تشغل بالك.

بينما اكتفيت بالمشاهدة ولم أحرّك ساكنا.
- كيف.. كيف لا أشغل بالي يا بنيتي أنا آوي عائلة بأكملها.. ستة أولاد.. ستة.. هل تعلمين ما معنى عائلة كاملة! من أين لي أن أطعمهم إن كان معاشي متوقفا..ها.. أجيبيني من أين أطعمهم؟
لو أنكم أوصلتم جوابي إلى العاصمة لكنت تقاضيت راتبي منذ يومين.. ياللّعنة ..اللّعنة.
كان ذلك الكهل غاضبا جدا، تخاله من فرط الغضب وحشا جارحا، بينما تلك الفتاة تحاول تهدئته، وبدَا على ملامحها كما لو أنها شعرت بالذنب حينما أخبرها بأنه رب عائلة وأنهم كانوا السبب في تعطيل معاشه.
جلس هنيهة وبدأ يهدأ شيئا فشيئا ثم همّ بالرّحيل، تقدّم خطوة ثم أدار برأسه اتجاه ذلك الموظف وقال:
- سأرحل الآن وآمل أن توصلوا جوابي عاجلا..
بدت ملامح الغضب على وجه ذلك الموظف وقال بنبرة حادّة أشبه بأن تكون مقدمة لشجار عنيف:
- لا يمكن، مستحيل.. نحن نعمل على توصيل المئات من الجوابات والبرقيات، مئات الزبائن مثلك كلهم ينتظرون، هل تظن نفسك أفضل من الجميع ..ها..؟ إذا لم تعجبك خدماتنا خذ جواباتك من هنا و ارحل..
قال هذا وسط ذهول الجميع بما فيهم أنا.
تجمّد الكهل وبدت عليه علامات الدهشة من هول ما سمعه..

- أرحل؟ ..هل تطردني؟ أتطرد رجلا في سن والدك! ..يا لحقارتك.

- نعم ارحل من هنا فورا.. ارحل.

خيّم السكوت على المشهد، وتجمّد الرجل جاحظا عينيه هنيهة، ثم راح يجرجر رِجليه إلى الخارج، بينما جاءت فتاة أخرى تتساءل عمّا يحدث لكن أحدا لم يجبها، الجميع كان صامتا.

نظر إليّ ذلك الشاب ثم تنهّد وقال:

- هل ترى يا سيدي الكريم هل رأيت ذلك، هؤلاء العفنون لا يهمّهم سوى أنفسهم، سوى أن تُقضى حوائجهم دون مبالاة لظروف الغير.

- عفوا.. ولكن لما لم توصلوا جوابه؟ هل هذا مرتبط ببعد المسافة مثلا؟

لا لا أيها السيد الكريم ليست مسألة بعد مسافة، إنما سياسة عملنا تقتضي أن نسافر إلى العاصمة مرة واحدة كل أسبوع، لكن الظروف هذه المرة حتّمت علينا أن نؤجل عشرات الجوابات، الظروف يا سيدي الكريم الظروف.

تجهّم وجه تلك الفتاة التي كانت تهدّئ الكهل، وبدَت كما لو لم تقتنع بما قاله، والحق أنني أدركت لحظتها لكم هو حنون قلبها، لقد كان وجهها وبقدر حسنه يشير بما لا يدع مجالا للشك، إلى قلب جميل كذلك يسكن أعماقها.

قاطعته قائلة:

– وأيّة ظروف هذه يا سيد وحيد.. هل تقصد ظروفا مهنية أم ظروفا شخصية؟

– ماذا؟.. بالتأكيد ظروف مهنية أنت تعلمين يا صوفيا حجم العمل الذي فوق رأسي..!

ازدادت نبرته حدّة وأردف قائلا:

– ثم إنّ والدتي مريضة وأخي مقبل على عملية جراحية، هل يعتقد ذلك المعتوه بأنني سأترك والدتي المريضة لوحدها في البيت وأسافر من أجله إلى العاصمة، فليذهب إلى الجحيم هو وأطفاله الستة، أنا كذلك لدي عائلة.

رسمت على وجهها ابتسامة أقرب لأن تكون هزلية وقالت:

– قل إذن.. قل هكذا من الأول، الله يرزقها الشفاء أنا آسفة..ثم غادرت.

تنهّد السيد وحيد، ثم سألني عمّا إذا كنت أطلب خدمة ما، فأخبرته بأنني أبحث عن وظيفة بهذه المؤسسة، وبينما كان يخبرني بأنه عليّ أن أنتظر قليلا ريثما تعود المديرة، كان يحملق فيّ بنظرة استطلاعية فضولية من حذائي حتى آخر شعرة من رأسي.. حتى اللحظة ما زلت أذكر تلك النظرة ولم تفارق ذهني أبدًا.

لمّا وصلت المديرة، تحدثنا قرابة النصف ساعة، وقد كانت تطرح عليّ بعض الأسئلة بغية أن تتعرف إلى بعض مهاراتي، ثم وافقت على طلبي وأبدت إعجابا كبيرا بي، والحق أنني كنت أرى في نفسي غير ذلك، وأنني غير جدير بكل ذلك الإعجاب، وأنّ الأسباب التي

جعلتها تعجب بي لم تكن من صميم طبعي، بل تعمّدت إظهارها بغية الظفر بالوظيفة، لذلك شعرت بأنني خدعتها، فكنت مدركًا إذن بأن هذا الإعجاب سوف تنطفئ جذوته مع الأيام.

أصبحت إذن موظفا..

مرّ قرابة شهرين من يوم تعييني في منصبي، كنت أمارس مهامي بشكل عادي في مكتب صغير رفقة السيد وحيد، الموظف الذي طرد ذلك الرجل وكانت تعمل معنا فتاتان إحداهما تدعى مريم وتبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما، طويلة القامة ونحيلة الجسد، هي فتاة ذكية تبدو أكثر نضجا ممن هم في سنّها، ملامح الحزن لا تكاد تفارق محيّاها لدرجة بات فيها الحزن عنصر طبيعي في ملامح وجهها. هي يتيمة الأبوين فقدتهما منذ قرابة العشرين سنة في حادث مرور بينما كانا يأخذانها إلى المستشفى، ربّتها جدّتها في البادية وكبرت هناك، إنها لا تحب أحدا سوى أختها الوحيدة وأبناء أختها، لكنها حنونة إلى حد ما وفي بعض الأحيان.. على أن هذا لم ينقص شيئا من أنانيتها ومن مكرها.

الفتاة الأخرى تدعى صوفيا وهي فتاة جميلة حسناء بهيّة الطلعة، ذات قامة معتدلة، تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما، هي فعلا ولست أبالغ أيقونة الأنوثة، ذكية، صوتها عذب كأنه البلبل، لا تخلو روحها من المرح ولا محيّاها من البشاشة، هادئة وجهها يشعّ أملاً وحياة، لقد نالت مني في أوّل أسبوع لي في العمل عندما اكتشفت

خجلي وأخبرتني بذلك.. في تلك اللحظة انهارت كل دفاعاتي ضدّ مفاتنها وبدَوت أمامها كالأسير.. لكن لماذا على المرء أن يشعل نارا في قلبه كهذه لمجرد أن فتاة أخبرته بأنه خجول؟ إنّ الأمر ليبدو تافها أيها السادة وما من شك في ذلك قطّ، فأيّ امرئٍ بإمكانه أن يخبرني بأنني خجول وستنزل على مسامعي عادية بسيطة لا سحر فيها ولا جاذبية، لكن أن تخبرني صوفيا بذلك فأضخّمه وأتأثّر له، وأجعل من كلمة نعتتني بها.. كلمة عميقة وسحرية، فهذا لم يكن لسبب سوى أنني أُعجبت بها من أول ما رأيتها، وابتدأت في حبها بالفعل، بيد أنني لم أكن لأدرك أمر حبي هذا إدراكا واضحا، فكنت أتحيّن تعثّر صوفيا بكلمة ذات معنى خصوصي، تقوم مقام الرخصة.. الرخصة لحبها.. كي أمنح الحق لنفسي في حبها.

على أنني، وأمام كل مفاتن النساء الحسناوات اللّواتي قابلتهن في حياتي، كنت أرفع الدّرع حاميا بذلك صدري و وجهي، أي في وضعية دفاع، وكنت دائما أكظم وأكظم كل الألم الذي يسبّبه لي الجمال، لكنني لعَمري ما هاجمت امرأة أو تطفلت عليها، ظنّا مني بأنها ومادامت لم تبادلني شيئا من الإعجاب فحتما هي لا ترغب بي..

عبد الرزاق موظف مكلّف بتوزيع الرسائل والطّرود وهو من ذوي الاحتياجات الخاصة معاق في نصفه الأيمن من جسده، تراه يكرّ رجله اليمنى كرّا و يده متدلية، وهو شاب مرح بشوش رغم ذلك ولم يحتقر نفسه يوما، ولم يشعر بالنقص حتى في وسط مجتمع حقير كالذي عشنا فيه.

في الواقع، لم أتمكن من جمع معلومات كثيرة عن عبد الرزاق، لأن أغلب أوقات عمله كان يمُضيها في الخارج، سوى أنني دَريت بأنه يعرف عائلة صديقي عمر وأنه درس مع أحد إخوته في المتوسطة، زد على ذلك أنه كان من النوع الذي لا يغرس أنفه في ما لا يعنيه، وهذا ما جعله يكسب احترام الكثيرين. أغلب اهتماماته هي حفظ عناوين المساكن والشوارع التي كان يجوبها، والتي لا تقلّ عن ثلاثين شارعا في اليوم، كان يرتدي قبعة تشبه قبعات أفراد الشرطة، ومن طرائفه الأشدّ وقعا في نفسي أنه عندما كان يقتني حذاءً جديدا يأخذه مباشرة عند الإسكافي لخياطته قبل أن يلبسه، لجعله أكثر صلابة وليدوم أطول فترة ممكنة، ذلك أنه يمشي أغلب اليوم، والمشي يُهري حذاءه.. ههههه يا للتفكير الجحوي هذا، ومع ذلك فبقدر ما كانت طرائفه تسرّ القلب كانت تدميه كذلك.

وحيد هو الموظف الأكثر شأناً أو على الأقل كما يبدو، لأنني مع مرور الوقت اكتشفت بأنه ليس أكثر من مخادع بائس، وهو الوحيد الذي كان لا يحوز شهادة، وظفته السيدة عائشة لأنه كان سادناً لدى المرحوم زوجها لسنوات، وقد عُرف لديها بوفائه وإخلاصه، وإبّان مرض زوجها كان لا ينفكّ ينقطع عنه فيؤنسه ويخدمه، حتى أنه قيل لي عندما توفي السيد عبد العزيز زوج المديرة تقطّع ألمًا لأجله وانتحب انتحابا شديدا، ولما رأت السيدة عائشة من حاله ما رأت، ارتأت أن تجازيه على حسن خدمته للمرحوم زوجها بأن توظفه في شركتها عسى أن تردّ بعضا من جميله، لقد كان فقيرا معدماً تراه

كالعود نحولا وضآلة، قصير القامة، جسده بحجم جسد صبي لم يتجاوز السادسة عشر، ذو بشرة بيضاء مائلة إلى الصفرة وعينان بنيتان ضيقتان، وحاجبان رفيعان، وشعر ممزوج بين السّواد وبياض الشيب، يبلغ من العمر الثامنة والثلاثين دعاني ذات يوم إلى شرب قهوة في إحدى مقاهي المدينة وكانت تلك المرة الأولى التي نجتمع فيها، فمضى يحدثني عن السياسة ومشاكل البطالة والفقر والأوضاع المزرية في الجزائر، بيد أنني لم أكن لأهتم يوما بهذا النوع من المواضيع، بل اضطررت الخوض فيها اضطرارا، كونها المرّة الأولى التي أجتمع فيها رفقة السيد وحيد، إذ لم يكن من الجيد في اعتقادي أن أُشعره بأي امتعاض.

لكنني شعرت وأثناء جلستنا، بأن السيد وحيد ذو شخصية مضطربة، لقد كان يحاول أثناء حديثه الإثبات بأنه شخص عارف ومثقف، كما لاحظته في فترات عديدة يتفحّص معطفي بعينيه، ثم يمضي ببصره ليتفقّد معطفه، وكان طول الطريق إلى المقهى يتفقّد حذاءه ويضبط بنطاله.

لقد كنت أملك من شدّة الإدراك ما يبيّن لي بوضوح، وما يجعلني متأكدا من أن السيد وحيد جاء بي إلى المقهى لا لسبب، سوى أنه أراد أن يرصد نقاط قوتي ونقاط ضعفي، كأنه يستعمل معي استراتيجية حرب محدّدة، أي معرفة نوع سلاح العدوّ قبل خوض المعركة، لقد شعر في لحظة معينة بأنني أفضل منه، وهذا الأمر الذي سيجعلني عدوّا له لا محالة، كما عرفت بأنه يعاني من عقدة نقص..

عقدة نقص بسبب سوء تعليمه، وأنه يحتقر المثقّفين وذوي الشهادات، وأنه معقّد من شكله ويكره نحافته وقصر قامته، وأصبح يكرهني لأنني أطول وأوسم منه..

لقد كرهته أيضا.. كرهته وحقدت عليه كثيرا، ذلك أنه ظلّ ينصب لي الفخاخ من أول يوم لي في المؤسسة، سيّما لما أحس بأنه ثمة شيء ما في أعماقي اتجاه صوفيا، لقد تفطّن للأمر ولذلك كرهته، لأنه أراد أن يتفطن للأمر.. وفطنته هذه لم تكن لتنبع عن ذكاء، وإنما عن خبث فاحش.. نعم وإني أؤكد لكم هذا أيها السادة، لقد حاول أن يقصيني من المجموعة مرارًا وظلّ يعاملني كالغريب عن المؤسسة دون أن أمسّه بأذى أو أرتكب ذنبا في حقه، وقد ظلّ يفعل هذا بطرائق ثعبانية دون أن يترك أثرًا يَدينه، ودون أن يُشعر أحدا بأنه وراء ذلك السّم، ففي مرة من المرّات قرّرت المديرة أن تكافئ موظفيها بأن تأخذهم في رحلة إلى واحدة من المدن الأثرية المجاورة، وقد طلبت منه يومها أن يخبرني بذلك، غير أنه أخبرها بأنني قد لا أرغب في المجيء، ومضى الأمر كلّه وفاتتني الرحلة ولم يخبرني.. آه لكم يتقطع قلبي حينما أتذكّرها.. تلك كانت فرصتي للاقتراب من صوفيا أكثر.. لكنه حرمني منها.. حرمني منها لأنه عَلم بأنها تشكّل فرصة ذهبية بالنسبة لي.

وإنه لم يقف فقط عند هذا الحد، أي إفساد طريقي إلى صوفيا، بل تعدّى ذلك، وعمل على تسميم المديرة ضدّي، كي يُشعرها بعدم فاعليتي في المؤسسة، ففي مرّة من المرّات كلفتني المديرة بتسجيل

الرسائل والجوابات في السجل اليومي ودمغها بالطوابع، وبينما كنت منهمكا في العمل عليها عرض علي السيد وحيد المساعدة، ومضينا في العمل ساعات طويلة حتى نفذت منّا الطوابع، ثم أخبرني بأنه عليّ الخروج لاقتناء المزيد منها، وقد كانت أقرب مكتبة تبيع الطوابع تبعد عن المؤسسة نصف ساعة ذهابا وإيابا، غير أنه وفي الوقت الذي كنت فيه بالخارج جاءت المديرة وسألت عني، وأخبرها بأنه لا يعلم وربما خرجت لمشاغل شخصية، لقد أخبرتني مريم بعدها بأن المديرة أبدت امتعاضا بسبب تلك الواقعة، كما أخبرتني بأن السيد وحيد هرع إليها بينما كنت في الخارج وأخبرها بأنه أنجز العمل الذي كُلِّفت به وأنه بذل مجهودا لإنجازه، وأن المديرة شكرته وأثنت عليه من أجل ذلك.

والواقع أن المديرة نفسها كانت على درجة من الخبث.. الخبث المهني، حيث أنها تعلم في قرارة نفسها بأن السيد وحيد يكذب وأنني يستحيل أن أُكلّف بمهمة تدخل في إطار مهامي ولا أنجزها، لكنها تتعمّد إشعار موظفيها بأنهم لم يقدّموا الكثير وأن عليهم بذل المزيد من المجهودات.

لكنني ومع مرور الوقت نسيت الحادثة أو على الأقل لم أعرها اهتماما كبيرا، لأنني كنت مدركًا بأن كل تصرّفاته هذه نابعة عن عقد نفسية، فبقدر ما أجتهد ليُشعر المديرة بأنني غير مهمّ للمؤسسة، كان في الحقيقة يحاول إقناع نفسه بأن الشهادة والمستوى الدراسي غير مهمّ بالنسبة له لتقلّد مثل هذه الوظائف.

كما أنني لم أكن مهتما بمكانتي في المؤسسة أو في عين المديرة، بيد أنني كنت مواظبا وجادّاً في العمل إلى الحدّ الذي يمنحني الرضا عن نفسي، لكن في صميم اعتقادي لم أكن لأتخيل من نفسي جنديا يدافع باستماتة عن سمعة المؤسسة التي يعمل فيها، بل كان أشدّ اهتماماتي منصبّ حول الراتب وتلك الجميلة صوفيا. وهي الفتاة التي جعلت مني فيلسوفا أكثر مما جعلت مني عاشقا ضائعا في صحراء جمالها، لكم كنت أعشق الخوض معها في المسائل الفلسفية، إنها تجاريني في كل مسألة أتحدث فيها، وتثبت لي يوما بعد يوم بأن كل إنسان بإمكانه أن يغدو فيلسوفا إذا ما وجد من يتفلسف معه بكل حرية وبدون أيّة ضوابط و قواعد، ومن دون الشعور بالعار والخزي فيما يقوله.. لقد كانت فيلسوفة بحق.. تجيد التفلسف.. والكلام.. وكنت أستمع لها بشغف واهتمام بالغين، وكنت أستمتع في الوقت ذاته بالجواهر التي تخرج من فمها، كأنها أشعار، أشعر وكأنها تستخرج الكلمات من منجم بعيد في أعماقها، ولكي أكون أكثر وضوحا سأخبركم بأنني كنت أتعمّد توجيه الحديث إلى القضايا الفلسفية -القضايا التي تحتاج كلاما مطولا-لكي أستمتع بما تقوله، فتجدني أقف وجها لوجه معها بينما هي مصوّبة عيناها الجميلتان نحوي محاولة تأكيد وجهة نظرها بشراسة، وإنّ هذا ليسمح لي أكثر من أي موقف آخر بمشاهدة جمالها الرباني الأخّاذ..

أذكر الحوار التاريخي الذي دار بيني وبينها في يوم من الأيام، وقد تحوّل ذلك الحوار إلى نقاش دامي، حول ما إذا كانت المرأة أصل

الشّرور في العالم أم الرّجل، وفي ذلك اليوم كان السيد وحيد في مهمة بالخارج، وكنت أنا وصوفيا في مكتب واحد ننظم الطرود ومريم في مكتب محاذي تعمل على الحاسوب، وكنت قد لاحظت علامات أسى أقرب إلى الكآبة على ملامح مريم، فراودني بعض الحرج في أن أسألها عن حالها، وبحكم أن علاقتي بها كانت سطحية جدا، لذا سألت صوفيا، فأخبرتني بأنها قد ألغت خطوبتها وأنه ورد إلى علمها بأن خطيبها مدمن مخدرات وقد اكتشفت بأنه يقضي معظم الليالي في الحانات يشرب الخمر، وظلّ يكذب عليها طيلة أشهر ويخبرها بأنه يعمل جاهدا ليلا ونهارا من أجل التحضير لزفافهما، فأبديت أسفي من أمر مريم وعبّرت لصوفيا عن انزعاجي من رجال هذا الزمان وكيف يمارسون الخداع والعنف المعنوي ضد النساء، فوجدت صوفيا تشاطرني الرأي وتُأكّد لي ما قلته، وراحت تسبّ و تلعن الرجال:

- اللّعنة على رجال من أمثال هذا، هل يكون من السهل أن يخدع أنثى ضعيفة وثقت به؟ أي قلب يحمله هذا الوحش؟

- من الممكن أن يكون نذلا وحقيرا، آه فعلا لكنها مع ذلك هي من تعرفه أكثر، ولو لم ترَ فيه شيئا من الطيبة وبعضا من الجمال لما ارتبطت به من الأصل، ولو كان مدمنا سكّيرا فإنها في قرارة نفسها تعتبره طائشا لا وحشا، وإنما هي تنزعج لأنها تحبه من قلبها.. هذا واضح.

- كيف لا يكون وحش؟ كيف؟ إنه مدمن مخدرات وسكّير ومادام

كذلك فقد يرتكب شرورا أخرى.. لا بدّ أن يكون غير جدير بالثقة..
ثم إن كل من يرتكب هذه الموبقات لا بد وأن يكون ذو قلب قاسٍ ونفس شريرة.. وكيف لا يكون؟ وهو لم يرتّب حسابا مع الله من الأصل.. إن من لا يخاف الله، الأجدر بنا أن لا نثق به.
- إنك تحاولين وضع قاعدة يا سيدتي، وأنت تقولين من خلالها وبمعنى مقابل، بأن أولئك الذين يمتنعون عن ارتكاب المحرّمات هم أجدر بالثقة من غيرهم.. إنّ هذا لخبلٌ عظيم.
إنّ هؤلاء الممتنعين عن ارتكاب المحرّمات هم في الغالب أشخاص عمليون ذوي قلوب متينة متماسكة، وما كان ليمنعهم تديّنهم البتّة، بل لأنهم لا يجدون فائدة حقيقية في تلك المحرّمات،
هم يهتمّون فقط لمصالحهم من أبسط معانيها إلى أعقدها، فيتبنّون الخيارات التي تحقّق لهم فوائد دنيوية يحقّقون من خلالها العيش الرغد والمستقبل الزاهر، وإلاّ فلماذا يحقدون على بعضهم ويكذبون على بعضهم، ويخونون أماناتهم، وينصبون الفخاخ لبعضهم البعض، لماذا يدوسون على جثث بعضهم من أجل الارتقاء في سلّم الدنيا؟ لماذا لا يمنعهم تديّنهم من ارتكاب مثل هذه الشّرور؟ أوليس كل هذا يحتّم علينا التساؤل؟
إنّ من يخاف الله بحق يكون ملزما تباعاً لذلك، بالامتناع عن كل ما يشكّل لديه اعتقادا بأنه قد يسبّب بفعله أذى للآخرين، وبهذا فإنه يقترب من الله أكثر.. إنّ القضية يا صوفيا تتجاوز بالفعل ما ارتكبه

خطيب مريم.

ومع ذلك فهي المسؤولة عن كل ما وقع لها.. إذ كان ينبغي أن تتعرف إليه جيدا قبل أن تُقبل على الزواج منه.. فلربما كانت ستتقبّله لو عرفت هذه الأمور منذ البداية.. أمّا الآن فهي مصدومة بطبيعة الحال لأنها وجدته على غير ما تخيلته.. طبيعي أن تنصدم طبيعي..

قالت بلهجة حادّة:

- لوكان هو صارحها في بداية تعارفهما بأنه مدمن لما حدث ما حدث.. لكنه كان يكذب طوال الوقت وهذه هي صفة كل الرجال.. أقصد معظمهم.. معظمهم كاذبون لكن الحمد لله.. الحمد لله أنها اكتشفت أمره قبل أن يتمّ الزواج..

كنت أعلم في قرارة نفسي بأنها محقّة في جزء كبير مما تقوله لأن مواقفها محتكمة للمنطق من دون شكّ.. كما أنني اعتبرت نفسي محقاً أيضا، بيد أنني لست متيقنا من أنني محق لذا حاولت الهروب إلى وجهة أخرى وقلبت الموضوع رأسا على عقب، وقفت وحملت كومة من الأظرفة التي كانت متراكمة أمامي ورميتها جانبا:

- ومهما يكن الأمر، فإن أصل كل شرّ في هذا العالم هي المرأة وليس الرجل..

تعجّبَت من ردّي، وقرأتُ في ملامحها بأنها شعرت بتوجيه الموضوع إلى ناحية أخرى.. وبدأتُ أسترسل في الحديث كما لو كنت ألقي محاضرة:

- نعم المرأة هي التي حملت وأنجبت وهي التي تعجن طفلها على

الشاكلة التي تريد، وهي التي تقضي معه أغلب الأوقات، ولا شكّ أنه يتعلم منها أكثر مما يتعلم من والده، وحينما يصير رجلا يتزوج امرأة وستساهم في كل قراراته.. المدينة التي يقيم فيها والمنزل الذي يعيش فيه، والوسوسة.. تلك الوسوسة الشيطانية التي تمارسها على زوجها لحمله على تغيير مواقفه، وحتى على مستويات سياسية فالتاريخ مليء بالوقائع التي تشير إلى أن المرأة كانت سببا مباشرا أو غير مباشر في معظم الحروب والكوارث الدّامية التي حلّت بالعالم..
قاطعتني قائلة: نعم هذا ممكن، الكثير من النساء ينجحن في التأثير على أزواجهن ويستعملن ضروبا من الحيلة والمكر، وهذه واحدة من أنجع أسلحة الأنثى، بيد أنني لست من ذلك النوع من النساء الذي يحبّذ السيطرة على الرجل، بل أحب رجلي كما هو سيّدا في قراراته وهذا يجعلني أعشق رجولته أكثر ..من أن أنجح في ترويضه.
وبينما هي تلقي على مسامعي كل هذه الكلمات، كانت تنزل عسلا ودررا على أذناي، إنكم لا تتخيلون أيها السادة متعة الجلوس أمام شخص جميل وجذاب وفي نفس الوقت طريقة تعبيره والكلمات التي يستعملها تخرج منه كفراشات ملوّنة.
كانت صوفيا تتحدث بحماسة شديدة كما لو أنها تتكلم عن نفسها، وكنت غارقا في جمال عينيها وعذوبة صوتها.. أتلقّى كلماتها كأنني أستمع لواحدة من مقطوعات يانّي كريسماليس، وبينما كنت تائها في تفاصيل وجهها الحسن، إذ دخل علينا السيد وحيد، وما إن وَلج المكتب الذي كنّا فيه وقعت عيناه علي، فحملق فيّ بنظرة تشبه

نظرات المحققين، ثم أدار رأسه نحو صوفيا وقال لها متسائلا:

- فيما كنتم تتحدثون؟

– ولا شيء موضوع خاص.. ثم انصرفت.

غير أن السيد وحيد ثار شكّه بالأمر، وقرأ ردّها على أنه أمر بيني وبينها كانت تخفيه، والشيء الذي جعله يشكّ أكثر هو ما قرأه في عيناي على حين غرّة في اللحظة التي دخل علينا فيها، مع أنني كنت متيقنا بأن السيد وحيد تفطّن لأمري وعرف في ذلك اليوم بأنني أكنّ مشاعر لصوفيا لأنه كان ذكيّا لدرجة لا يمكن معها أن تمرّ عليه مواقف مشابهة دون أن يعطيها التفسير الحقيقي، غير أنني لم أهتم إذا كان عرف أو لم يعرف، بل ما كان يهمني أكثر هو تستّر صوفيا على الأمر خصوصا عندما أخبرته بأن الموضوع خاص وكان هذا محور تفكيري في تلك الليلة بعد الحادثة. أتذكر أنني استيقظت على الساعة الثالثة صباحا وجعلت أسأل نفسي لماذا أخفت عنه ما كنا نتحدث بشأنه؟ وبدأت عملية التحليل وترتيب الاحتمالات وقلت لنفسي ربما خشيت أن تسمع مريم بأنها أفشت سرّها ويبدو الأمر عندئذٍ أننا نتحدث بشأنها و في أمورها الشخصية.. ربما.. لكنني فنّدت ذلك بعدها، فلو كانت تنوي فعلا ذلك لما أخبرتني من الأصل وطالما أخبرتني فهذا مؤشر على أنها تثق بي على الأقل أكثر مما تثق في السيد وحيد..أو ربما تكون معجبة بي.. نعم ربما.. لكن لماذا قالت للسيد وحيد موضوع خاص؟ كان بإمكانها أن تقول له لا شيء وتكتفي.. هل بعثت لي رسالة مشفرة؟ هل كانت تريد أن

تخبرني بأنها ترغب في أن يكون بيني وبينها شيء خاص؟ لكنني وفي خضم كل هذه التحليلات كنت أعتنق مبدأ أو على الأقل كنت مقتنعا به، لأنني فهمته منذ وقت طويل، يقول بأنه "عليك أن لا تثق في المشاعر التي تجتاحك ليلا".. لكنني يا سادة يا كرام بإمكاني أن أعترف لكم الآن بأنني وقعت في حب صوفيا بالفعل.

ومنذ ذلك الحين وأنا أتقلّب بين أمواج حبي لصوفيا، بين الشكّ واليقين، أحيانا يلوح لي بأنها تعشقني وتبادلني نفس شعوري اتجاها فيجود مزاجي، وأحيانا تقتلني بصمتها فتهتز أركاني وتخالجني الشكوك حول مدى حبها لي. على أنني لم أقوَ على مصارحتها بما اختزن من عذابات بسبب الخجل، حتى تراني إن عزمت على مصارحتها والاعتراف بحبي أغدو متوترا مرتجف الأطراف كأنني على وشك ارتكاب جريمة، وكنت في حاجة ماسة للثرثرة مع أحدهم بيد أنني لم أجد من أثرثر له، بل لم أجد من أثق به، حتى صديقي عمر لم أكن ألتقي به كثيرا بسبب ضيق الوقت وكثرة مشاغله، كما لم يكن بالنسبة لي الشخص الجدير بالثرثرة، ذلك أنني كنت أبحث عن شخص ما يعرفني ويعرف صوفيا في نفس الوقت.. كي تكون الثرثرة لذيذة وذات معنى، لكنني وجدته.. وجدته في النهاية.. وجدت ذلك الجدير بالثرثرة.

أرسل لي عمر دعوة لحفل زواجه قبل أيام، وقد فرحت كثيرا لأمره وعزمت أن ألبّي دعوته، مع أنّني كنت أمقت الحفلات حينها لأنها تضعني في وسط جموع من الأشخاص ممن لا أعرفهم عن قرب

وهذا يسبب لي الانزعاج، كذلك الحفلات تُلزمني أن أبقى مبتسما وحيويا لفترة من الزمن وهذا ما كنت أعجز عن فعله، حتّى وإن حاولت تزييف ابتسامتي لمدة، فإن هذا الأمر يجعلني أبغض نفسي ويشعرني بالخزي، وقد جرّبت تزييف الابتسامات في الحفلات التي حضرتها فجعلت نفسي أتعذّب بدل أن أفرح وأمرح. لكن عمر شيء مختلف ومكانته عالية في قلبي، وهذا يجعلني أتشوّق لأحضر حفل زفافه و أراه عريسا، وبالفعل ذهبت وكان ذلك يوم الخميس وكان يوما لطيفا ورائعا وقد سعدت فيه حقا، سعدت بمشاهدة الخيول البدوية الراقصة على أنغام القصبة والأغاني الشاوية والفرسان يداعبون قِربيناتهم ودويّ البارود يملأ المكان، وكان الشيخ أحمد والد عمر يعاتب جموع الصبيان الذين كانوا يعبثون مع الخيول ويرميهم بالحجارة، وقد كان مشهدا مضحكا للجميع، وقد قابلت هناك عبد الرزاق الذي يعمل معي بنفس المؤسسة، لأنه كان مقرّبا من أحد إخوة عمر وتبادلنا أطراف الحديث حول العمل وصعوباته والرّاتب الضعيف الذي كنّا نتقاضاه، وتحدّثنا عن عمر وعائلته وحكى لي كيف تعرّف على عائلة عمر وأنه درس مع أحد إخوته في المتوسطة، وحكيت له عن كيفية تعرّفي على عمر و عائلته، وكان ذلك اليوم الوحيد الذي تحدثت فيه مع عبد الرزاق مطوّلا لأنني كنت لا ألتقيه كثيرا في المؤسسة سوى لدقائق معدودة، وقد راق لي الحديث معه كثيرا لأنه كان إنسانا عفويا تخرج منه الكلمة صافية ولا يفكّر قبل أن يتكلم، وهذه هي الميزة التي حببتني فيه منذ

يوم عرفته، وقد قابلت يومها والدة عمر الحاجة، وكنّا آنذاك مجموعة من الشباب حوالي عشرين شابا فوق سطح منزل عمر نرقص ونمرح، وجاءت لتضع على أصابعنا الحنّة، وكنّا مجتمعين حولها وكان بجانبي عبد الرزاق، وهي تضع لي الحنة قبلتني على خدي ودعت لي دعوة مباركة رافعة يديها ووجهها إلى السماء وهي تقول:

روح يا بني الله يرزقك الزوجة الصالحة ليمنحك الله من خيره ولتنل من رزقه بقدر طيبة قلبك..

وإذ هي تختم دعاءها بالتسليم خاطبها عبد الرزاق فرحا ضاحكا:

- لقد وجدها بالفعل..

ابتسمت هنيهة كأنّي لم أسمع شيئا ملفتا.. ثم نظرت إليه بينما لايزال يضحك وقلت له كأنني لم أفهم ما قاله للحاجة:

- ماذا تقصد؟

قال وهو يكاد ينفجر من الضحك:

- لا شيء لا شيء..

أمسكته من يده وكانت ملامحي مزيجا بين الدهشة والابتسامة وألحّيت عليه بأن يخبرني لأنني كنت متيقنا بأنه يقصد صوفيا..

قال أخيرا:

- إنني على علم بأمرك وأمر صوفيا..

- وماذا تعلم؟

- أعلم بأنك معجب بها وأنكما تتحدثان مطوّلا في المؤسسة.. وتقضيان أغلب الوقت معًا..

- فقط هذا ما تعرفه؟

- نعم هذا ما عرفته من مريم لكن أترجاك بأن لا تخبرها، لقد لاحظت إعجابك بصوفيا.. لاحظت ذلك منذ أشهر قليلة..

بينما شردت قليلا و تحوّلت ابتسامتي إلى ملامح أسف..

ولم أكن لآسف من اكتشاف عبد الرزاق ومريم لأمري، بل حزنت لأنني توقعت من عبد الرزاق أن يخبرني بشيء ما.. شيء آخر غير الذي أخبرني به.. كنت أتمنى لو قال لي بأنه يعلم بأننا نحب بعضنا مثلا بالمعنى الذي يؤكد لي بأن صوفيا تحبني كذلك، لكنه لم يقل..

بينما كنت على تلك الحال، شارد الذهن ربّت على كتفي وقال:

- هل أنت منزعج؟

- لا لا إطلاقا.

- عفوا.. ولكنك تبدي كآبة، على غير ما كنته منذ لحظات.. أكيد أنت منزعج.. آه يا إلهي أنا آسف إنه ليس ذنبي أنني عرفت.. ليس ذنبي..

- لا.. لا ليس هذا.. ليس هذا.. كل ما في الأمر هو أنني..

ماذا؟؟؟

كل ما في الأمر هو أنني.. يا صديقي الفاضل، أنه لم يزعجني اكتشافك للأمر ذلك أنني أحترم شخصك الكريم، كما أنني لا أشك في مدى إخلاصك واستقامتك وأنك جدير بالثقة لا محالة وهذا ما يجعلني أحترمك أكثر.. لكنني أحبها يا عبد الرزاق.. أحبها بجنون ولم أقدر على مواجهتها بالأمر، إنني أفكر بها طيلة اليوم، لقد كرهت

العمل.. كرهت السيد وحيد المتعجرف الذي يظن نفسه شيرلوك هولمز..لقد كرهت وجهه وملامحه.. وذلك كله بسبب تصرفاته معي، إنه يبغضني.. يبغضني بسبب صوفيا.. أنا أعلم هذا يا صديقي الكريم.. يظلّ طوال اليوم يراقبني مذ اكتشف ولعي بصوفيا.. كما أنني أعرف بأنه يحسدني ويغار مني لأنني شخص مثقف، لكنني حاولت وحاولت جاهدا بأن أنزل بنفسي منزلة الجاهل من أجله كي لا يشعر بالنّقص والدّونية، لكنه لا ينفكّ يتمادى.. هل تعلم يا صديقي العزيز والمبجل لماذا لا أواجهه؟ لماذا لا أبلغه بأنني على علم تام بمشاعره الدنيئة اتجاهي وبأنه يكرهني ويحسدني؟ لأنه سينكر حتما كل شيء أقوله له.. وسيدّعي الملائكية وبأنه لا يقصد أي شيء قذر قام به.. وهذه هي عادة البشر ذوي القلوب المريضة المنافقة.. لكنني لن أواجهه بشيء ولن أمنحه تلك الفرصة الذهبية كي يدافع عن نفسه أمامي أو يحاول تغيير مفاهيم عن نفسه أصبحت قناعات بالنسبة لي ...سأتركه للقدر..

كرهت مريم أيضا.. كرهت أنانيتها.. صمتها المسموم هو سبب كرهي لها، إنني أشكّ يا عبد الرزاق دائما.. أشكّ في أن تسمم عقل صوفيا ضدّي وأخسر.. أخسر كل شيء.. أو أن تشي بي للمديرة، تلك المديرة النرجسية البشعة الأنانية.. إنها لا تهتم لأمر أحد، كل ما يهمّها جمع المال.. من شدّة حقدي وكرهي لها.. لا أقوى على النظر إليها.. بل صرت أتجنبها طوال اليوم.. ألم تخبرك مريم بذلك.. قد تكون لاحظت ذلك أيضا.. وكل هذا.. كل هذا بسبب صوفيا..

تجتاحني رغبة قوية في تقديم استقالتي لكنني لا أقوى على الابتعاد عنها يوما واحدا.. إنني أحمل كل هذه الأحقاد في قلبي لكنني أحبها.. أحبها كثيرا...

وأخيرا اطمأنّ قلبي.. لقد اعترفت بكل شيء لعبد الرزاق، نزلت السكينة والراحة على قلبي، لقد كان يستمع إلي بكل جوارحه.. وهذا ما كنت أحتاجه في الواقع.. شخص مثل عبد الرزاق أفرغ له ما في جوفي.

ودّعني عبد الرزاق بكلمات لمستُ فيها الحنان والرّأفة.. وأخبرني بأنه يخطط للزواج بعد أن يجري عملية جراحية على رجله اليمنى، تمنّيت له التوفيق والشفاء ثم افترقنا.

لقد منحني الحديث لعبد الرزاق دفعة معنوية قوية، لأنه استمع إليّ بقلبه كما أبدى لي شيئاً من تضامنه معي ووقوفه بجانبي، ذلك ما شعرت به في تلك الليلة، حتى أنني في تلك الأيام راودني إحساس بالنجومية والبطولية، شيء من الغرور الذي كنت دائما ألجأ إليه حينما أوشك على السقوط، وكنت أجول في المؤسسة مرفرفا كالطائر الحرّ المغرور لا آبه لأحد ولا أحدث أحدا بما فيهم صوفيا، لأنني كنت أنتظرها لتأتي هي وتبادر بالحديث معي، وهذه حيلة من حيلي التافهة استعملتها معها كي أعرف إذا ما كانت ستتذمّر من ابتعادي عنها أم لا.. لأتأكد من أنها تهتم لأمري، غير أنها لم تقل شيئا ولم تبدُ عليها أيّة ملامح توحي بحدوث شيء غير مألوف، سوى أنها كانت تأتي إلى مكتبي أحيانا قليلة تأخذ غرضا ثم تغادر دون أن تقول شيئا،

وقد انزعجت في تلك اللحظة لأنها لم تقل شيئا ولأنهم كانوا مجتمعين ثلاثتهم في مكتب واحد وكنت جالسا لوحدي بمكتبي، وكانوا يتحادثون و يتضاحكون، وكان السيد وحيد يقهقه، وهذا ما زادني غضبا وجنونا لدرجة تعرّيت فيها من عاداتي وطباعي وانقلبت وحشا جارحا وانصدم الجميع من تصرفي في ذلك اليوم عندما انفجرت في وجهه ومسحت به الأرض مسحا، عندما كان يحدّثهم عن جارته المعلمة المعروفة في حيّهم بأخلاقها و طيبتها وكيف اكتشفها في مرّة من المرّات تعذّب القطط بينما كان فوق سطح منزله، ودار بينه وبين صوفيا نقاش حول الموضوع عمّا إذا كانت المعلمة مخبولة، مجنونة، لبسها جني، أم مريضة نفسيا واحتدم النقاش بينهما، عندها أتى إلي وطلب مني أن أفصل بينهما لكنني رفضت ذلك متحججا بأنني مشغول، بيد أنه ألحّ في طلبي وقد كنت أغلي في أعماق نفسي وأعصابي مشدودة وقلبي يخفق من فرط الغضب والعرق يتسايل من جبيني، ثم وقفت من على الكرسي وقفة منتصبة ومضيت أرمقه بنظرة استصغار:

- لقد أخبرتك منذ لحظة بأنني مشغول.. ثم إنني لا أجد متعة في المواضيع التي تتعرض للأشخاص سيّما ما تعلق منها بخصوصياتهم، وإني أجدك تتكلّم في أمر يخصّ جارتك، أولا تخجل من نفسك؟

- وماذا في ذلك؟. .نحن نتحدث عن الموضوع في شقّه العلمي لا في شقّه الشخصي.

- قلت العلمي ها؟ يا لوقاحتك.

رفع حاجبيه مستنكرا ما سمعه..

- هل تدري بأنك جاهل؟ ها..

ذهل الرجل وانصدم وامتقع وجهه وصار كالليمونة.

- إنك شخص جاهل فعلا وليس لديك أي مستوى دراسي أو ثقافي يسمح لك بالخوض في هكذا مواضيع وبالأخصّ في شقها العلمي، لذلك فإني أعتبرك متطفلا جدا ومتبجحا، وتتكلم فيما لا تفقه، وتجعل من نفسك علاّمة وعقلك أجوف، ومستواك صفر، كما أنني لا أسمح لنفسي بأن أهبط لمنزلتك بالخوض معك في ترّهات وتفاهات أنا في غنى عنها.

جاءت الفتيات تجرين من هول ما سمعن، لم ينطق السيد وحيد بكلمة واحدة وخيّم السكون على المكان، وفي تلك اللحظة فُتح باب المؤسسة ودخلت المديرة ولزم كل موظف مكانه، شعرت بالفخر واللّذة في تلك اللحظة، لذّة الانتصار وردّ الاعتبار، وأنني تمكّنت من إفحامه وإذلاله أمام الجميع وأمام صوفيا، وقلت له الكلام الذي حبسته في صدري لأشهر طويلة وقد حبسته لأنني لم أُرد حينها كسر خاطره وإيذاء كرامته وجرح مشاعره، كذلك لو كنت أذللته من قبل بمثل هذا الكلام لحقد علي، ولو حقد علي سيجعل مني عدوّا له، على أنني كنت أتجنب العيش مع العداوة قدر المستطاع وهذه واحدة من أرسخ اعتقاداتي، لكن السيد وحيد حتّم علي ذلك وأرغمني على إهانته بهذا الشكل وبتلك الكلمات الجبّارة ذات الوقع القوي على

نفسه وقلبه، لأنه اقترب من صوفيا للحدّ الذي أصبح لا يمكنني تحمله، لأنه استعمل حبيبتي ودخل معها في نقاش عمدًا بغية استفزازي.. لذلك أفحمته.. نعم أفحمته وإنني لفخور بما فعلت، لقد استحق ذلك.. استحقه.

بل كان يستحق لكمة على وجهه القذر..

كنت أقول هذا لنفسي وأنا مستلقٍ على سريري ليلة الحادثة.. أتخيل ذلك المشهد وكيف انكمش جسده حينما أفحمته وكيف انقلبت ملامح وجهه وهو يتلقّى مني سيل الكلمات المسمومة.. وكيف وقف أمامي باكما عاجزا عن الرّد.. وعينا صوفيا كيف جحظتا وتسمّرتا في وجهي من فرط الدهشة والذهول، ومضيت أتساءل وأبحث في نظرة صوفيا تلك، هل نظرت إليّ بتلك الطريقة على أنني بطل وصاحب حق وكانت تعبّر من خلال نظرتها عن إعجابها ورضاها؟ أم أن نظرتها كانت توحي بالصدمة ممّا بدر مني على أنها ما عهدتني هكذا وما كانت لتتخيل أن أكون ذلك الشخص المتعجرف الذي يهين ويستمتع بتقزيم الآخرين؟ وكنت في حيرة من أمري وبدأ الندم يتسرّب إلى أعماقي شيئا فشيئا، وحلّ محل اللذة التي كنت أشعر بها منذ لحظات، وجعلت أفكّر في مآل الأمر بعد ذلك.. ماذا لو حقد علي السيد وحيد بسبب ما قلته له ونوى بي شرا؟ نعم سيفعلها حتماً، أنا متأكد من أنه لن يدّخر جهدا لإيذائي وإلحاق السوء بي.. أعرفه إنه شيطان ..خبيث وماكر.. يا إلهي اللّعنة.. اللّعنة ماذا لو سمّم عقل المديرة ضدي بحكم علاقته القديمة بها ووصل

الأمر إلى طردي؟.. ماذا؟.. طردي!.. والوظيفة!.. الراتب!. ليذهب الراتب إلى الجحيم.. لا يهمّني.. لكن صوفيا.. إذا ذهبت الوظيفة ستذهب معها صوفيا.. يا حبيبتي آه آه.. يا إلهي فيما ورّطت نفسي.. سيسمّم عقل صوفيا أيضا أنا متأكد من ذلك..

- لكن تريث تريث.. ثمة فكرة جهنمية ستخرجك من هذه الورطة.

- أية فكرة هذه؟

- سأمنحك سلاحا.. لكن عليك أن تتقن اسخدامه.. اتفقنا؟

- نعم هات وخلّصني.

- ستعتذر للسيد وحيد.

- أعتذر!؟ مستحيل إلاّ هذه.. لن أفعلها ولو قطعوا رأسي..

- اسمع.. اسمع ستصطنع ذلك فقط.. أنت ستعتذر له شكلا.. لكن في قرارتك ابقى على حالك، اكرهه وابغضه كيفما تشاء.. فقط اعتذر لتمنحه صكّ أمان و تتقي شروره..

- لكن.. كيف أفعل ذلك.. كيف سأخفي كرهي له.. ستبدو علامات الكذب والنفاق على وجهي.. مهلا.. مهلا.. هل تريدني أن أغدو منافقا؟؟ عليك اللعنة..

– نعم، نعم هذا هو بيت القصيد أن تنافق من ينافقك.. ثم إنه ليس عليك أن تسمّيه نفاقا بإمكانك أن تطلق عليه مهارة ذاتية مثلا.. صدّقني سينجح معك الأمر، لكن عليك أن تجيد استخدام هذا السلاح كما سبق وأن أخبرتك.. ولا تدع غريمك يعرف ما تُبطنه..

- حسنا.. حسنا تبدو فكرة جيدة بالنظر إلى نتائجها، لكنها وضيعة وقذرة بقدر ما هي جيدة.. على كل حال سأنام الآن وليذهبوا كلّهم إلى الجحيم..

صباح اليوم التالي ..كان الجو غائما، زخات مطر ضئيلة تتطاير لا يكاد المرء يحس بتساقطها، فكّرت في ضرورة أناقة مظهري الذي سيمنحني ثقة في نفسي إذا ما تعرضت لوعكة نفسية أو نوبة خجل اليوم في مواجهة السيد وحيد، أو حتى المديرة التي كنت أحتمل أن تستدعيني للاستفسار عن ما حدث بيني وبينه، أو على الأقل لو حاولوا التقليل من شأني سأظهر بمظهر المحترم أمام نفسي وأمامهم، ارتديت ملابس أنيقة كنت ألبسها في المناسبات فقط رغم أنها قديمة لكنها تتسم ببعض الجاذبية والوقار، ووضعت فوقها معطفا أسود طويل يشبه تلك التي يرتديها أبطال المسلسلات التركية وحذاء أسود لمعته جيدا، سرّحت شعري ومضيت قدما..

تعمّدت التأخر لبضعة دقائق كي أُلفت الانتباه، دخلت ومرّرت عيناي باتجاه مكتب المديرة رأيتها تتحدث مع السيد وحيد وكانا لوحدهما.. انتابني شعور بأنهما يتحدثان عن واقعة الأمس فبدأت بتحضير نفسي.. حيّيت صوفيا ومريم ولزمت مكتبي.. بعدها مرّ السيد وحيد بجانب مكتبي وتوقف عند الباب هنيهة وألقى علي السلام.. ردّيت السلام بنبرة متمتمة، فكّرت قليلا.. كنت مترددا بشأن مسألة الاعتذار.. لكنني قرّرت إذن.. تجاسرت وناديته ثم دعوته لشرب فنجان قهوة في أحد المقاهي المجاورة.. فقبل الدعوة

سريعا.. خرجنا وكنت صامتا طوال الطريق نحو المقهى حتى جلسنا على طاولة وجها لوجه.. هو كان يعرف بأنني أنوي الاعتذار، لاح لي هذا من تحركات ملامحه، احترت كيف أبدأ ومن أين، بيد أنني تجاسرت وبادرت بالكلام قائلا:

لتعلم أيها السيد الكريم.. السيد وحيد، بأنني ما قصدت شيئا مما قلته لك بالأمس وأعتقد بأنني جرحت مشاعرك عندما نال مني الغضب ولم أدرك ما أقول أو أفعل ونعتك بما ليس فيك.. ولك منّي كل الاعتذار والأسف، أنت تعلم كيف يتحوّل المرء إلى شيطان تحت وطأة الغضب.. كما تعلم بأن ضغوط العمل تثير النرفزة داخل نفس المرء.. ما عساي أفعل وأنا منحصر بين مطرقة البيت وسندان العمل.. ها.. قل لي يا سيد وحيد رجاءً..إنني إنسان مسالم وطيب إلى ما لا يخال لك وربما تكون قد لاحظت هذا... أليس كذلك.. وإنني أكره أن أخلق العداوة في مكان أقضي فيه أغلب يومي.. فهذا يرهقني كثيرا.. هل تفهمني؟.. إنني تواق للسلم والطمأنينة و.. يجب أن تفهم هذا يا سيد وحيد، إنني لا أستحق أن تجعل مني عدوا.. ولا ندًّا..

اتسعت عينا السيد وحيد كما لو لم يصدق ما يسمعه.. بيد أنه أبدى تسامحا وتعاطفا بعد ذلك.. على أنني أيها السادة وفي خضم تلك المشاعر التي انتابتني في تلك اللحظة.. شعرت في لحظة معينة بأنني صدقت في كل ما قلته له، وأنني لم أكذب في كلمة واحدة سوى كلمة الاعتذار.. وأنني أعبّر له بكل جوارحي ولم أزيف شيئا كما كان

يفترض بي أن أفعل..
وعلى أيّة حال فقد مضى أمر الاعتذار هذا وشعرت بعدها بشيء من الارتياح في أعماقي، حتى عندما عدنا إلى المؤسسة انقلبت بهيجا مسرورا.. وصرت أجول بين الغرف كطائر الحسّون، وما زادني بهجة نظرات صوفيا إلي وإعجابها بمظهري ولباسي، لأنها أخبرتني يومها بأنني أشعّ أناقة، فرحت أطير فرحا وسعادة كالمجنون، وبينما كنت منشغلا في مكتبي أحضرت كرسيها الخشبي ووضعته بجانبي وجلست، فاقتربت مني كل القرب لدرجة خفق فيها قلبي وضاق عني النفس.. وصرت من فرط الارتباك أبدو كالمعتوه.. ولولا ذلك المعطف الطويل الذي كنت أرتديه لانفضح جسدي وهو يرتجف ارتجاف الدجاجة، وجعلت تشمّ العطر الذي أضعه من خلال معطفي، وقد أخبرتني حينها بأنها اشتمت عطرا شذي الرائحة كان يضعه صاحب محل لبيع الملابس النسائية، وهو يقع على بعد شارعين من المؤسسة التي نعمل بها، وفي آخر اليوم بينما كنت عائدا من العمل فكّرت بأن أمرّ بصاحب ذلك المحل وأتحجج له بأنني أنوي اقتناء فستان لزوجتي ثم أقترب منه وأسأله عن ماركة العطر الذي يضعه، وبالفعل ذهبت وسألته و نلت ما أريده واقتنيت ماركة العطر نفسها التي يضعها في نفس اليوم، ووضعت من ذلك العطر في كل أنحاء جسدي.. مرّت أيام وأنا أراقب صوفيا وأنتظر اللّحظة التي تعرف فيها بأنني أضع نفس ذلك العطر الذي أعجبها عند صاحب محل الفساتين، لكنها لم تفعل وبتّ في حيرة من أمري.. مضى قرابة

الأسبوع حتى تفطَّنَت.. لكنها سألتني سؤالا أفقدني توازني كليّة عندما اقتربت مني واشتمت ذلك العطر و لم تبدي أيّ علامة إعجاب، بل أخبرتني بأن صاحب محل الفساتين يضع عطرا شذيا ذي رائحة جذابة لا تقاوم، نفس ما أخبرتني به في السابق، وأنها لم تتعرّف على ماركتها وإلّا لكانت أخبرتني بها.. اندهشت من قولها وقلت في نفسي كيف يحدث هذا؟ لا بدّ أنني أخطأت المحل.. ثمة خطأ ما.. وعندما رجعت في ذلك المساء إلى نفس الشارع وجدته محلّا واحدا وهو نفسه الذي ذهبت إليه من قبل.. اقتربت قليلا من واجهته فلاحَ لي شخص آخر غير الذي وجدته من قبل، دخلت وسألته عن الشخص الذي وجدته في المرة السابقة، فأخبرني بأنه أخوه وأنهما يتناوبان على المحل.. أيقنت حينها بأن صوفيا كانت على حق.. فصنعت خدعة صغيرة لصاحب المحل لكي أعرف الماركة التي يضعها، ثم أخذتها وغادرت.. واقتنيتها في تلك الليلة.

والحق أنني اقترفت أمورا أكثر صبيانية ومراهقة من هذه.. مع أنني كنت في سنّ يفترض فيه النضج أكثر.. لكن ثمة طفل صغير في عمق.. عمق نفسي كنت أشعر به.. يدفعني للقيام بأشياء على هذا النحو.. في أكثر أوقاتي سعادة.. وفي أكثر أوقاتي تعاسة...

ومع مرور الأيام تحسنت علاقتي بالسيد وحيد أو على الأقل كما تبدو.. فقد حسّن سلوكه اتجاهي وبات يعاملني باحترام ووقار كبيرين، وربما كان يبطن لي غير ما يظهره.. لذلك كنت أتعامل معه بحذر كبير وحقد أقلّ.. لأن حقدي زال وتلاشى من يوم أذللته أمام

الجميع.. أمّا هو فالأكيد أن حقده اتجاهي زاد ونما منذ ذلك اليوم، على أن الاعتذار خفف من حزنه وأعاد له بعضا من كبريائه المجروح.. لكن ذلك كان مؤقتا ولبضعة أيام فقط.. وسرعان ما تحوّل إلى كرهي مجدّدا ..وهذه المرّة كرهني بشدة.. وأصبح حقده اتجاهي مفضوحا، واضحا وضوح الشمس.. كرهني للحد الذي يتمنى فيه موتي..

في منتصف شهر ديسمبر، استدعتنا المديرة خمستنا للاجتماع في مكتبها، من أجل بعض الترتيبات والتفاهات التي كانت تقولها كل شهرين أو ثلاثة، تخص سير العمل، وكنت جالسا مقابل المديرة وجها لوجه وبجانبي عبد الرزاق وكانت تجلس صوفيا ومريم على يميني.. على أريكة ذات مقعدين، بينما كان السيد وحيد يجلس شمالي على كرسي فردي، وكان خاشعا خشوع المؤمنين في المعابد، بينما المديرة تلقي تفاهاتها المألوفة على مسامعنا.. كانت ملامح الجميع على طبيعتها باستثناء السيد وحيد، الذي كانت ملامح وجهه تتفاعل مع كلمات المديرة كالمصلّي في مسجد في حضرة الخطيب.. وهذه واحدة من التقلّبات المنافقة والبائسة التي لاحظتها كثيرا في تصرفاته، أمّا أنا فقد كانت جثتي حاضرة مقابل المديرة لكن عقلي يفكر في شيء آخر.. كنت أعاتب نفسي لأنني لم أتفطّن للجلوس مقابل صوفيا مباشرة، كي أستطيع استراق النظر إليها دون أن أُلفت الانتباه، لكنها كانت تجلس على يميني والمديرة تواجهني.. وليس في استطاعتي اختلاس النظر إليها من دون أن ينتبه لي أحد من

الحاضرين..
ظللت أفكّر بهذا الأمر حتى نطق عبد الرزاق.. فأحدث فوضى بين الحاضرين.. في الحقيقة أحدث فوضى في عقول بعض الحاضرين.. وكنت أرى تلك الفوضى بدقّة أكثر من أي أحد آخر.. حينما أخذ الكلمة من المديرة وقال:
- أستسمحك عذرا يا سيادة المديرة.. لكن بودّي أن أُبلغك شيئا ما..
- بكل سرور.. تفضل.. تفضل..
- إنني مقبل على إجراء عملية جراحية الأسبوع القادم.. بخصوص إعاقتي.. رجلي اليمنى.. وها هي شهادة الموافقة..
ثم أخرج ورقة من جيبه وراح يقدمها للمديرة:
موعدي مع الفريق الذي سيجري العملية..
امتقع وجه المديرة فجأة وصار إلى الصفرة.. أمسكت الورقة من يده و جعلت تقرأ لبرهة.. ثم سألته:
- وكم تقدر مدة غيابك تقريبا يا عبد الرزاق؟
تنحنح قليلا ثم قال:
- في الحقيقة لا أعرف يا سيادة المديرة، لكن ربما ثلاثة أسابيع أو أربعة ..ثم أردف ..أو ستة ربما ..لا أدري.
سلّمَته ورقته و دعت له بالشفاء دعوة تجعل المرء يشكّ في منبعها و في صدقها..
دعت له مريم وصوفيا أيضا بالشفاء من كل قلبهما، ولم أشك في

صدق مشاعرهما بتاتا، بينما السيد وحيد فقد حمل كومة من الأوراق أحضرها من مكتبه ووضعها أمام المديرة وبدآ يتناقشان.. أمّا أنا ..فقد كنت أراقب الجميع...أراقب الجميع.. لكن ليس بعين الشرطي كما تعتقد..إنما بعين ذلك الزائر الذي حلّ ببلاد لم يعرفها من قبل.. أدهشه سكانها.. وبهت من نمط حياتهم.. واستغرب كل شيء يراه حوله..

ثم انصرف الجميع والتزم كل واحد مكان عمله، باستثناء السيد وحيد الذي بقي لفترة يتحادث مع المديرة بنبرة تهامس لا تكاد تسمع لهما صوتا، وبعد مرور بضعة أيام وفي إحدى الأمسيات، أتت إلى مكتبي مريم وصوفيا تبدو على وجهيهما علامات الذعر وكأنما تريدان إخباري بسرّ ما، بينما كنت جالسا غارسا رأسي أمام الحاسوب وكانتا واقفتين، فبادرت مريم قائلة:

- هل يمكن أن نتحدث معك لدقائق بخصوص أمر ما؟

امتقع وجهي و صار أخضرا فجأة كما لو كنت على طاولة استنطاق وواجهني المحقق بجريمة ارتكبتها.. جحظت عيناي وقلت لها متحشرجا:

- أكيد أكيد تفضلي..

- نظرت مريم إلى صوفيا وضحكتا، بينما شعرت بانهيار نفسي كأنني على وشك سماع خبر مؤلم صادم، بيد أنني تماسكت ورحت أزيف ابتسامة كاذبة غبية.

- نعم تكلّمي ما الأمر؟.. هل توجد مشكلة؟

- لا.. لا توجد مشكلة، ولكن ثمة شيء نودّ أن نخبرك به

- إيه تفضلي قولي كلّي آذان صاغية ما هذا الأمر الذي جعلكما تبدوان كالذي يمتلك سرّاً ..بينما كنت أبلع الريق من حين لآخر من فرط التوتر الذي حال إلى ذعر.

- لقد اكتشفنا شيئا.. اكتشفنا شيئا مهمّا ونعتقد بأنه يهمّك..

انفطر قلبي في هذه المرّة وتحوّل وجهي من أخضر إلى أزرق وأحمر من فرط الخجل، وتجعّدت جبهتي وصارت عيناي تلعب هنا وهناك ولم أعد أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول وقلت لنفسي لقد اكتشفت صوفيا الأمر ومريم كذلك.. يا للعار يا للموقف البائس يا للورطة التي وقعت فيها ..اكتشفتني صوفيا...بأنني أحبها وربما السيد وحيد هو من أخبرها أو ربما مريم.. بحكم أنها مقرّبة منها.. لا.. لا أكيد السيد وحيد القذر هو من أخبرها وسمّمها فجاءت لتخبرني بأن لا أبني أية آمال لأنها لا تفكر في الارتباط أبدًا، أو أن علاقتها بي لا تعدو علاقة زمالة وعمل وعليّ أن أدرك حدودي.. وبينما أنا على تلك الحال نطقت صوفيا قائلة:

- هناك شيء بين السيد وحيد والمديرة، إنهما يطبخان شيئا ما..

قاطعتها مريم:

- إنهما يخططان لشيء ما له علاقة بنا وقد لاحظت ذلك من أسبوع.. لاحظت السيد وحيد يتردد على مكتب المديرة مرّات كثيرة وكان يغلق الباب كي لا نسمع شيئا مما يتحدثان، وكان يجلس هناك دقائق طويلة.. لقد أثار ذلك شكوكي في أن يكونا يخططان لشيء ما، حتى

أنني في مرّة من المرّات عندما كانا يجلسان لوحدهما دخلت عليهما فجأة فصمتا فورا وكأنهما كانا يتحدثان في موضوع سرّي..

أخذت زفرة طويلة كأنني كنت غائصا تحت الماء ثم خرجت..وقلت لها:

- في ماذا يخططان في رأيك، هل تعتقدين أن السيد وحيد يعمل على النيل مني مثلا؟

قالت: لا أعتقد ذلك.. لكن علينا أن نكون حريصين وحذرين فكل الشرور تأتي من رأس ذلك الوحيد.. وقد ينوي شرّا بنا جميعا.. ونحن نريد منك الآن أن تحاول معرفة الأمر من السيد وحيد لربما تتمكن من مخادعته، وتجعله يكشف لك بعض المؤشرات.. علّنا نفهم ما يحدث.

قاطعتها صوفيا موجهة إليها الحديث:

- كيف تريدينه أن يفعل ذلك ..إنهما متخاصمان ولا أحد يثق بالآخر..

- نعم، ولذلك يتوجب عليه أن يصالحه و يحاول التقرّب منه قدر الإمكان كي نتمكن من معرفة ما يبطنه هذا الحقير بمعيّة المديرة..

أبديت نوعا من الامتعاض و اللامبالاة وقلت لهما:

- وهل الأمر يستحق كل هذا التفكير و التدبير؟ فليفعلا ما يشاءان.. إنه لا يهمّني ما يخطّطان لفعله كما لا أجده مهمّا لكلتيكما.. فلماذا تتحملان عناء التفكير في حماقة مثل هذه..

ابتسمت صوفيا، بينما أبدت مريم امتعاضها بطريقة أقرب لأن تكون

هزلية فكاهية ثم انصرفتا.

بينما مضيت أفكّر وأتساءل، ترى لماذا النساء يفكّرن في تفاصيل ويدقّقن في أمور تبدو للرجل مجرد تفاهات وترّهات لا تستحق ذلك العناء الفكري والنفسي؟ هل لهذا علاقة بكون المرأة ذات كيد؟ أي أنها تتمتع بذكاء تحليلي فطري ولكي تمارس ذكاءها هذا تتبع هذه الخطوات وتطرح التساؤلات حول ما تحمله تصرفات الأشخاص من خفايا ثم ترصد نواياهم وتوقع بهم؟ هل لهذا علاقة بالفضولية مثلا؟ كون المرأة بطبيعتها مفطورة على الرغبة في معرفة كل شيء عن الآخرين.. أم أن هذا هو التفكير المنطقي والواقعي الذي يفترض أن يكون لدى الجميع ..بمعنى أنه يتعيّن على المرء أن يكون مدركا لكل ما يحيط به، كي ينجو بنفسه من المكائد التي تحاك ضده، وأن لا يجد نفسه ضحية خطط جهنمية نُسجت له في حين غفلة دون أن يدري بها أو بمن نسجها له..يا لها من مخلوق عجيب..

على أنني أيها السادة.. احترمت نمط تفكير المرأة هذا، بعد أن احتقرته سابقا أثناء فترة مراهقتي الفكرية.. وكنت كثيرا ما أتساءل حول تصرفات أمي وبالتحديد فضوليتها المطلقة حول كل من يشاركونها عالمها-حياتها- وكانت تهتمّ لأتفه سلوكيات أولادها، وذلك لغاية في نفسها هي تفهمها وتدركها، فمثلا كانت عندما تسمع صوت نافذتي تفتح تذهب فورا لتسخين الحليب والخبز، فتعرف من خلال ذلك الصوت بأنني استيقظت وتعلم بأنني سأذهب إلى مائدة الفطور بعد خمس دقائق بالضبط، ولو كنت لم

أخرج من غرفتي في الوقت المحدّد حسب اعتقادها، ستتساءل وتنشغل بالأمر وتفكر فيه، وقد تقتحم غرفتي وتسألني لماذا تأخرت، مع أنه بالنسبة لي لا يعتبر تأخرا.. ثم إنه لو كان والدي مكان أمي لن يفعل لي أمورا مشابهة حتمًا.. حتى إنني لأعتبر أمي أنجح من أبي كتقييم عام لأنها كانت تنتهج نمطها الفكري هذا، وقد مكّنها من تحقيق أهدافها على بساطتها.. على خلاف أبي الذي كان يقع في المشاكل باستمرار، وأغلب مشاكله مهنيّة لها علاقة مع الأشخاص، فمرّة طردوه من وظيفته بخطة محكمة لم يتفطن لها، لأنه كان لا يبالي باستدراك ما يحاك خلف ظهره.. كما كان يتخبّط في مشاكل ماديّة تتعلق بسوء تدبير مصاريف المنزل وحاجياته، لأنه كان ينفق بإفراط ولا يدّخر فلسا واحدا للمستقبل، وكله من أجل أبنائه في الحقيقة، فقد كان يلبي كل شيء نطلبه منه في حدود قدراته.. لكن قلب حنون يُدير.. سيضيع في النهاية.. يلزمه فكر وعقل لينجو.. وهكذا أقنعت نفسي وربما أكون مخطئ، في أن تفكير المرأة هذا ولو كان يبدو تافها مقيتا وصبيانيا، إلاّ أنه على قدر من الأهمية في الواقع.

وقد ثبت هذا لدي بما لا يدع مجالا للشك بعد أيام قليلة بينما كنت في مكتبي، أين فاجأتني مريم بخبر نزل عليّ كالصاعقة حينما أبلغتني بأنه قد تمّ طرد عبد الرزاق من المؤسسة وبُعث إليه برسالة بريدية تتضمن الفصل..

يا للعجب.. يا إلهي.. كيف؟ كيف حدث ذلك هل ارتكب خطأ ما

قولي لي أرجوكِ؟
قالت بلهجة ساخرة:
- لم يرتكب شيئًا..أوَ يفعل!..هل يمكن لذلك المسكين أن يرتكب خطأ؟
- ولماذا إذن؟ لماذا تقدم على فصله؟
- أمم.. ربما يتعلق الأمر بالسيد وحيد..
- ماذا تقصدين.. وما علاقة السيد وحيد بالأمر؟
- بشأن تلك الطبخة.. التي حدّثناك عنها.. أنا وصوفيا..
جاءت صوفيا تجري.. همهم.. لقد فصلته فعلا.. فصلته تلك المديرة الّلعينة يا لهم من أشرار وقحين.. أيعقل هذا؟.. هل يعقل أن يطرد وهو على فراش المرض.. ياللقلوب السوداء المريضة..
كنت في حيرة من أمري.. خالجني مزيج من مشاعر.. الغضب والحسرة والقهر.. ثم التفت لمريم :
- هل يمكن أن يكون.. كما اعتقدتما؟.. هل يمكن أن يكونا قد اتفقا على طرده، يعني السيد وحيد والمديرة دبّرا هذا؟ هل كانا يتحدثان بشأن هذا خلسة؟
- نعم هذا أكيد.. ألازلت تشكّ في الأمر.. وربما القادم أسوأ.. من يدري.
نكستُ رأسي ووضعت راحة كفي على جبيني ومضيت غارقا في التفكير ..التفكير في السيد وحيد، ألهذه الدرجة قد يحول المرء وحشا ينصب الفخاخ لأخيه، لكن لماذا ومن أجل ماذا؟ مهما يكن السبب

لا يمكن لأحد إيذاء شخص مثل عبد الرزاق.. إنه إنسان طيب.. طيب حدّ السذاجة وهو لم يسئ لأحد.. حتى إنه لم يقتل ذبابة في حياته كلّها.. والذي آلمني أكثر.. من أين له أن يقتات بعد الآن، بعد أن يتوقف راتبه.. لقد أخبرني بأنه يخطّط للزواج وإنشاء بيت وأسرة.. لماذا فعلتِ هذا يا سيادة المديرة؟ هل أساء إليك عبد الرزاق يوما؟ هل أخلّ بالتزاماته يوما؟ لماذا إذن.. بل والأمرّ من هذا، من سيفكّر في توظيف معاق مسكين مثل عبد الرزاق، إنّ فرصته ضئيلة للظفر بوظيفة في هذه الأيام، كلّهم وحوش لا يهمّهم سوى المال.. يرَون الموظفين مجرد ماكينات دون أدنى مراعاة لمشاعرهم.. أو ظروفهم.. لينتقم منهم الله.. لينتقم منهم..

كان الجميع يبدي مشاعر الحزن من أمر عبد الرزاق غير ذلك النّذل الذي كان في قمة سروره وغبطته، -على أنه لا يعلم شيئا- وراح يحملق في ثلاثتنا ثم ثبّت أنظاره اتجاه مريم متسائلا:

- أرى عبوسا في وجوهكم.. ترى ماذا حدث.. ما سبب ذلك؟

رمته مريم بنظرة استخفاف قائلة:

- على أساس أنك لا تعرف؟

- عفوا.. لكن.. ماذا تقصدين بالضبط؟

أدارت رأسها عن وجهه وحرّكت شفتها السفلية في تمتمة..

ثم راح يسأل صوفيا مجددا:

- بالله عليكم أخبروني ماذا يجري؟

– عبد الرزاق..

– ما به عبد الرزاق؟ هل هو بخير؟
– لقد فصلته المديرة.
تجمّد وجهه فجأة.. ومضى يخبط راحته على جبينه مبديا أسفه –وهو يصطنع ذلك حتما، الجميع كان يعلم أنه كذلك– ..ثم دمدم:
– يا إلهي.. ياللمسكين.. لكن كيف حدث هذا.. لا لا ..لا أعتقد أن المديرة تفعل ذلك، لا يمكن..
– بلى لقد تم الأمر فعلا.. بالأمس.. هل تخبرنا بأنك لا تعلم بالأمر فعلا يا سيد وحيد؟
أعلم! وكيف لي أن أعلم؟ هل تعتقدين بأن المديرة تخبرني بكل شيء تقدم على فعله.. ومن أنا حتى تخبرني؟
ياللّعنة ..أين سيذهب المسكين بعد الآن.. سيُصدم من قرار فصله، أكيد أنه سيصدم ويذهل.. هذا ما لم يكن ينتظره.. إنه طيب جدا ورجل شهم وكان يعامل الجميع بلطف ليس له مثيل.. نعم.. هذا هو عبد الرزاق.. على أيّة حال ..هذه أحوال الدنيا لتلطف به الأقدار..
كان الجميع يحملق في السيد وحيد بنظرات تجعله يشك في نفسه، وكان متلعثم اللسان مرتبك الجسد كأنه أدرك تفطن الجميع لأمره، بيد أنه لم ينفك يخفي حقيقة ما يبطنه، بل كان يحاول ضبط نفسه قدر الإمكان كي لا يلفت الانتباه وهو يؤدي ذلك الدور القذر بكل براعة.
لكنه وبعدما شعر بأنه فعل ما يجب فعله، أي أنه أكمل تمثيليته كما

خطّط لها أن تكون، همّ بالخروج متحججا بتراكم الأعمال لديه، وغادر تاركا سكونا تملأه فوضى الشكوك.

في صباح اليوم التالي استدعتني المديرة وأذكر أنني قابلتها بوجه متكبّر، كانت جمل كثيرة واضحة في عيناي تريد أن تنطلق لكنني لم أقوَ على إطلاقها.. كنت جالسا في حضرتها وكلي حقد وكره، فقط أطعنها بنظرات باردة، وقد شعرَت بذلك.. شعرَت بانزعاجي لكنها هي الأخرى لم تقوَ على مصارحتي بالأمر أو بما خالجها اتجاهي، بل حاولت تهدئتي بطريقتها، بسؤالها عن حالي، وراحت تستعمل عبارات لبقة لأنها اشتمت امتعاضي بسبب درايتي بأنها فصلت عبد الرزاق، لقد أحسّت بالذنب إحساسا سطحيا فاترا..

لأنها لو شعرت فعلا بالذنب لتراجعت عن قرارها، لكنها كانت تفكّر بمنطق عملي بحت خالي من أي عواطف أو مشاعر إنسانية، وهذا ما كان يثير غضبي مرارا. صمت قليلا ثم أجهمت وجهي وقلت لها ببرودة:

- استدعيتني يا سيادة المديرة.. هل بإمكاني معرفة السبب لو سمحت؟

قالت: نعم لقد فعلت ذلك.. لكن لا تقلق لا شيء يثير القلق.. أنت تعرف في الحقيقة بأنكم أنت وزملاؤك أعمدة مؤسستنا، وأنا ممتنة لهذا كثيرا يا سيدي عن جدّ وأفتخر بكم، أنت تعلم.. كم أفتخر بتفانيكم وخدمتكم العظيمة.. لكن المؤسف في الأمر أن عبد الرزاق مريض وأنت تعلم بأنه سيغيب لفترة طويلة لا نعلم تقديرها

بالظبط، وعليه كان لزاما علينا بأن نعيّن آخرا لخلافته من أجل سير العمل، وكي لا تتراكم فوق ظهورنا أعمال الزبائن، لذا فإنني أقترح بأن تخلف عبد الرزاق وتستلم مهامه، وبهذا نغطي الفراغ الذي تركه مذ غادرنا.. لذا فابتداءً من يوم الغد ستباشر مهامك في التوصيل.. هذا كل ما في الأمر، هل لديك ما تقوله؟

- لا لا.. لا توجد مشكلة سأكون في الخدمة بالطبع.

- يمكنك أن تواصل عملك إذن تفضل.

انصرفت من مكتب المديرة وقد دخلت في نوبة حيرة.. صدمة..وما كان ليصدمني طلب المديرة لولا أني أدركت بأنني سأفارق صوفيا طوال اليوم.. فكيف لي أن لا أراها طيلة اليوم وهل ستشبع رغبتي تلك العشر دقائق التي أقابلها فيها عند نهاية كل يوم.. يا ويلي.. ويا ويل قلبي مما سيحدث لي.. إنه العذاب.. العذاب الأكبر يا سيادة المديرة..

فجأة انقدح ذهني لفكرة أن السيد وحيد وراء كل هذا.. نعم هو.. وصرت أعضّ على شفتي من فرط الغضب.. ذلك الكلب القذر قد أوقع بي مجدّدا.. وهو يريد بذلك إبعادي عن صوفيا بكل ما أوتي من قوة.. يا للخبيث أيفعل بي كل هذا ومن أجل ماذا!..إنني لم أؤذيه أبدا.. لماذا قد يفعل بي هذا.. هكذا إذن أزاح عبد الرزاق لكي يدفع بي إلى التوصيل.. لكن لا علينا.. سنتعامل مع الأمر.. سنتعامل معه، ثم بدرت لي فكرة وقلت لنفسي ماذا لو أعترض على قرار المديرة وأخبرها بأنني لا أرغب في العمل على التوصيل.. لكن يجب

أن يكون اعتراضي مبرّرا كي تقبله، بمعنى يجب أن أقنعها بأنني غير صالح للعمل في التوصيل.. نعم هذا هو الحل وهذا ما يجب أن أفعله وإلاّ سأخسر صوفيا.. سأخسر حبيبتي إلى الأبد.
وقفت أمام نافذة مكتبي ومضيت أفكر وأفكر.. في المصيبة التي حلّت بي.. عسى أن أجد لي سببا أقنع به المديرة لتتراجع عن قرارها إزائي، وبينما كنت غارقا في التفكير كان السيد وحيد في الغرفة المجاورة يسمعني ضحكاته وقهقهاته عمدًا، شعرت للحظة بأنه علم سبب استدعائي من طرف المديرة، وكان ينتظر تلك اللحظة لأنه طبخ كل شيء بيديه وفقا لخطة محكمة، لكن تلك الضحكات و القهقهات أقدحت في ذهني فكرة، فكرة قد تنجيني وتشفي غليلي.. فأضرب عصفورين بحجر واحد.. هرعت في الحين إلى مكتب المديرة وقد كانت عيناها كأنهما تتساءلان عن سبب وجودي أمامها..
- في الحقيقة لقد أردت إخبارك يا سيادة المديرة بأنني غير مستعد بتاتا لمهمّة التوصيل هذه.. ربما لا أجيدها فقط هذا كل ما في الأمر..
- ولماذا أنت غير مستعد يا سيدي؟ هل لديك مشكلة في الأمر؟
- لا، لا ليست قضية عدم استعداد لكن.. لكن لا أعتقد أنني سأؤدي على النحو الذي تنتظرون يا سيادة المديرة ..فأنتم تعلمون بأنني لا أعرف العناوين ولا أحفظ شوارع المدينة كما هو الحال بالنسبة لعبد الرزاق أو السيد وحيد، فهما لديهما من الخبرة أكثر مني بحكم أقدميّتهما..

– نعم، نعم فعلا ..لكن ستتعلم مع الأيام وت..

قاطعتها قائلا:

– ما رأيك يا سيادة المديرة أن تحوّلي السيد وحيد إلى مهام التوصيل.. لا شكّ أنه أدرى وأكفأ بها مني، خصوصا وأنه مارسها من قبل مجيء عبد الرزاق بسنوات.. أعتقد أنه سيكون أفضل.. أفضل للمؤسسة ..أمّا أنا.. فأنا متأكد أن هذا سيكلفني الكثير من الوقت كي أجيده خاصة وأنني اعتدت عملي المكتبي وأؤديه بكل براعة.. أنت تعلمين هذا يا سيادة المديرة..

– أمم لا عليك.. لا عليك، دعنا نفكر في الأمر وسنقرّره فيما بعد..

– شكرا يا سيادة المديرة .. شكرا على تفهمكم.

خرجت من مكتب المديرة وما إن رفعت رأسي واجهتني عينا السيد وحيد، لقد كان ينتظر خروجي، كان في حالة تساؤل بينه و بين نفسه عن سبب رجوعي لمكتب المديرة.. أحرقت قلبه بابتسامة ممزوجة بنظرات على طريقة الأشرار.. كما لو كنت أخبره من خلالها بأنني اكتشفت الكمين وسأوقعك فيه لا محالة.

شعرت من خلال تعابير وجه المديرة بأنها ربما ستغيّر رأيها في تحويلي، فتحسّن مزاجي ورسمت على محيّاي ابتسامة فخر جميلة أكملتها صوفيا حينما تقدمت إليّ بوجهها البشوش الصبوح وعيناها الجميلتان وهي تقول لي بلغة الدّلال:

– اسمع اسمع حفل عيد ميلادي الجمعة المقبل.. أنت مدعو ولا تنسَ أن تحضر لي هدية..

- واااو..حسنا حسنا كدت أنسى بالفعل أنك من مواليد ديسمبر شهر البؤساء هههه.

وأين ستقيمين حفلك الفخم جلالتك؟

- أمم في قصر أبي طبعا.. ذلك المشيّد على أطراف المدينة ألم أخبرك عنه؟

- بلى بلى أخبرتني نعم ..

هههه انفجرتُ ضحكا وانفجرت هي الأخرى.

- حسنا إذن..أين سيقام الحفل؟

- لقد اتفقت والدتي مع مسؤول دار الشباب وسيمنحنا قاعة كبيرة هناك يوم الجمعة وسنقيم الحفل هناك.. لا تنسَ الهدية ها.. أنا ذاهبة الآن وداعا..

- أمم حسنا..

ثم قلت متمتما:

أي و الله لو طلبت القمر لأحضرته لك على طبق..

لقد كان حبّي لصوفيا يزداد لهيبا مع الأيام، حب صامت لم أقدر على استنطاقه أبدًا.. شيء ما كان يمنعني من مواجهتها بمشاعري الهائجة.. بدل ذلك كنت أكظم وأكظم.. فأتألّم في صمت، ربما بسبب الخجل يعني الأمر أشبه بأن يكون لا أخلاقيا بالنسبة لي، وحتى لو افترضنا جدلًا بأنني تغلبت على ذلك الخجل اللّعين وتجاسرت على إخبارها سيمنعني ردّها، يعني لو أخبرتها بأنني أحبها ربما ستقول بأنها لا توافق على مبادلتي ذلك بسبب أنني لا أعجبها

أو لست نوعها المفضل.. فأتحطم بذلك وأنهار انهيارًا ليس بعده قيام، لذلك دعنا نعيش في الوهم ونتمنى أن يصبح واقعا.. ذلك سيكون أفضل.. نعم على الأقل سيبقى حبل الأمل مشدودا ..

هل تدرون أيها السادة بأن الحب هو أول عامل يدفع هرمونات الحزن لدى الإنسان للنشاط بعد أن كانت في حالة سبات.. الحب هو أول مجرم لقّننا أبجديات الأسى.. يمكنك أن تحب في سن العاشرة وتتألم للفراق بمشاعر فياضة حقيقية وبريئة.. بيد أنك لن تشعر بألم الفقر أو اليتم في سن العاشرة لأنك لا تعي ما معنى ذلك أصلا، حتى ولو فهمته أو عبّرت بطريقة ما عن شعورك بالحاجة..

فثمة من يعمل على محاربة ذلك من أجلك كي لا تشعر.. وهذا هو السبب.. هذا هو السبب أيها السادة في أننا محزونون.. لا لأننا اخترنا أن نكون كذلك.. بل لأن طريقنا رُسم بشكل لا ينبغي معه الاختيار، ولأننا تذوقنا جميع أنواع الألم.. منذ نعومة أظفارنا ..شربنا من كل كأس نوعا من الألم.. هذه هي الحقيقة.

نادت المديرة على السيد وحيد.. بينما ازددت غبطة وسرورا وعرفت بأنها تنوي إخباره بالأمر، أمر تحويله إلى التوصيل، فأدركت بأنني أقنعتها وشعرت لحظتها بأنني ردّيت له الصّاع صاعين، وتمكنت من إفساد مخططاته الخبيثة لإبعادي عن طريق صوفيا.

دخل شخص غريب عن المؤسسة وقصد الغرفة التي يوجد بها مكتب صوفيا ومريم، لاح لي للوهلة الأولى بأنه زبون، بيد أنه بعد برهة تصاعدت لهجة الحديث وباتت تبدو كشجار، ومريم أحد

طرفيه:
- اذهب من هنا.. قلت لك بأن كل شيء انتهى ألا تفهم؟
- مريم استمعي إلي رجاءً..علينا أن نتحدث اتفقنا؟
- لا حديث معك بعد الذي حدث.. ألا تخجل من نفسك، ها؟
- أعلم بأنك ترينني وحشا قبيحا بلا ضمير.. لكنني لست كذلك أنت تعلمين هذا.. تعلمين أنني أحبك ولا أقوى على فراقك..

لقد جنّ جنون مريم عندما سمعته يخبرها بأنه يحبها وزادت وحشيتها وراحت تطرده شر طردة حتى مضى يجرجر رجليه مغادرا كالكلب.. بينما كنت واقفا مذهولا مما حدث أمامي، على أنني ظننته في بادئ الأمر مجرد زبون، لكنني تبيّنت بعدها بأنه خطيبها الذي انفصلت عنه مؤخرا.

ارتمت مريم على كرسيها متهالكة وانفجرت باكية، فهرعت صوفيا لمواساتها بينما اخترت المغادرة إلى مكتبي لأنه لم يكن في استطاعتي إيجاد كلمات من شأنها أن تخفف عنها، لقد كان كل شيء واضح أمامي.. واضح أنها مجنونة في حبه وقد أهلكها فراقه هي نفسها، لكنها تحتاج وقتا كي تسامحه، كما تحتاج منه أن يبرّر لها.. تحتاج أن يشدّها بقوّة من كتفها ويشعل عينيه في عينيها ويخبرها بأنه لن يتنازل عن حبه مهما كان الذي ستفعله، وأنه سيظلّ في أعقابها حتى تعود إليه، ثم يغادر دون أن يلتفت وراءه، ودون أن تطرده هي.. تلك الدموع التي ذرفتها ..كانت تقول ذلك.. كانت تعبّر عن حسرة وندم.. الندم على طرده، والحسرة من أن لا يعود أبدا...

لم يطرف لي جفن في تلك الليلة.. الليلة التي أخبرتني فيها صوفيا بموعد حفل ميلادها، وشعرت بالتوتّر والعجز، ذلك أنني كنت لا أملك المال الكافي حينها كي أقتني لها الهدية المناسبة، ولا ما يمكّنني من اقتناء ملابس جديدة لنفسي، وكان هذا أقصى وأقوى اهتمامي، أمّا مسألة السيد وحيد فقد كنت قد طويتها بنسبة كبيرة ..لكن هدية صوفيا كانت بالنسبة لي فرصة العمر.. الفرصة التي أثبت فيها مدى حبي واهتمامي بها، أمامها وأمام الحاضرين.. حتى مظهري الخارجي كان ينبغي أن يكون على مستوى عالٍ من الرقي والأناقة لأنال إعجابها أكثر وأكثر، ومع الهدية الثمينة حتمًا ستقع في حبي إلى الأبد.. أكيد أن مظهري الخارجي لا يقلُّ أهمية عن قيمة الهدية.. خصوصا أمام الحضور.. وأمام السيد وحيد.. يجب أن أجعله يستسلم وهو يراني شامخا في الحفل كالبطل.. وهو يراني محطّ نظر الجميع...جميع الحضور ..تلك هي فرصتي التي أثبت له فيها بأنني أفضل منه ليس فقط لأنني مثقف، بل لأنني أكثر منه جاذبية ووسامة، ولأريه كيف أنني أكسب احترام الجميع وعلى رأسهم صوفيا.. وسيحتقر نفسه حينها ويستصغر نفسه أمامي.. ولن يجرؤ بعدها على ندّيتي أو مجابهتي.. لأنني سوف أترك له جرحا نازفا.. سينجرح كثيرا عندما يرى عينيْ صوفيا تشتعلان وهي تحملق فيّ من شدّة إعجابها بي.. نعم ستكون نظرتها لي مغايرة عن نظرتها لي في المؤسسة.. فذلك مكان عمل مألوف ولعين ..أما الحفل فشيء آخر.. ستراني كما لو تراني للمرّة الأولى في حياتها.. فارس أحلامها

جاء من بعيد على حصان أبيض والغار يكلّل جبينه والحضور.. جميع الحضور في ذهول، ثم أسلمها الهدية وأقبّل يدها الناعمة منكسا رأسي إجلالا لها.. ومثنيًا ركبتيّ.. وستفرح هي بذلك.. ستفرح كثيرا من هذا الطقس الرائع وستشعر بالسمو كأنها ملكة في قصرها.. وسأشعر أنا الآخر بالسمو والفخامة، وسينقبض وجه السيد وحيد حسدا وكرها في تلك اللحظة، وسيتعرق من فرط الغيرة وربما سيغادر الحفل. لكن المال مشكلة.. وحده المال مشكلتي في الحياة.. لقد حطّم معظم أركان نفسيّتي، حتى فتاة الجامعة التي كنت معجبا بها ثنيت نفسي عنها بسبب فقري، ولم أرضَ لنفسي إبّانها علاقة عاطفية تجلب لي المذلة ..بل كنت أكظم الوجع وأتجرّع الألم يوما بعد يوم.. في الوقت الذي كان فيه أغلب زملائي يستمتعون بالرفقة والأنس ويتذوقون من مشارب الحب.. الحب الواقعي.. كنت أسبح في الوهم والإدّعاءات وحيدا. إنني لا أجد سببا وجيها يجعل المرأة تنفر من الرجل غير فقره.. وهذه هي قناعتي.. ولا أخفي بأن هذه هي قناعتي التي هدمتني.. وذلك لا يعني بأن المرأة حين تميل إلى الرجل الغني إنما تريد أن تستمتع بأمواله، بقدر ما يجعلها ذلك تستشعر فيه رجولة كاملة ..وهي محقّة في ذلك يعني من وجهة نظرها كأنثى ضعيفة توّاقة للقوة بكل معانيها، توّاقة للرجل القوي الذي لا يضعفه فقر ولا شيء آخر.. وهذا هو المفترض في الرجل.. أي أن تشمل قوته ويشمل كماله تغلّبه على فقره وبهذا يكون في تمام الرجولة والبطولة فينال إعجاب

الأنثى وعشقها إلى الأبد، بيد أنني كنت أرى نفسي ومن هذا لمنظور عاجزا عن أن أكون حلما صعبا لأية أنثى.. لطالما شعرت بالعجز في مواجهة واقعي في أن أبلغ الكمال المادي.. وحتى اللحظة.. اللحظة التي اعتبرت فيها نفسي موظفا ينال أجرا.. لازلت أفكّر عاجزا.. في ثمن هدية صوفيا.. ولم يتبقَّ سوى يومين على موعد الحفل، والراتب لن يحين أجله إلاّ بعد أسبوع.. أسبوع كامل.. يا لها من ورطة.. حتى عمر.. صديقي عمر فكّرت في أن أقترض منه مالًا، لكنني تراجعت بعدها، لقد خجلت من نفسي لمجرّد أن فكّرت في ذلك.. خجلت من نفسي كثيرا..حتى وإن كنت متأكدا من أنه سيقرضني إن طلبت.. فلطالما طلبته ولبّاني.. لكن اليوم الرجل متزوج ومسؤول عن أسرته، ولا يجدر بي الاقتراض منه.. نعم لا يجدر بي أبدًا..

إنني لا أمتلك سوى خمسمائة دينار وهو مبلغ لا يكفي حتى لاقتناء زجاجة عطر محترمة، بيد أنني فكّرت في أن أقترض ألفي دينار من أمي، لأنني لم أجد أي شخص آخر يمكنني أن أقترض منه بما يحفظ لي كرامتي واحترامي، وكان وقتها قد قارب آذان الفجر وكنت أترقّب أمي لتقوم إلى الوضوء، مضيت إلى الشرفة أراقب خروجها من غرفتها.. ولمّا لاح لي بأنها لم تستيقظ بعد ذهبت و وقفت عند باب غرفتها:

- أمّاه لقد حان وقت صلاة الفجر أولم تستيقظي بعد؟

- بلى بلى لقد سمعت الآذان واستيقظت منذ برهة يا ولدي..

ثم فتحت الباب ونظرت إلي مستغربة..

– ولكن ما الذي أيقظك الآن يا بني؟ لا تقل لي بأنك لم تنم؟

– لا، لا إطلاقا.. لقد نمت بالفعل، ثم شعرت بأنني اكتفيت، فقلت لنفسي أن أقوم لأتجول قليلا.. هذا كل ما في الأمر.

كنت أشعر بتوتر غريب ليس بسبب أنني سأطلب مالا من أمي، لأنني لم أكن لأخجل من أمي في هذه الأمور، بل لأنني خشيت أن تكون أمي لا تملك مالا لتعطيني إيّاه فأنهار حتماً.. إنها أملي الوحيد، لذلك شعرت بالتوتر وكنت أريد أن أرجع إلى فراشي مطمئنا من أنني قد ضمنت ثمن الهدية.

رحت أراقب أمي وهي تصلي إلى أن أكملت صلاتها ثم ذهبت للمطبخ فتبعتها، بينما كانت تقلب في الخزانة العلوية للمطبخ كأنها تريد أن تجلب شيئا من هناك، أخرجت علبة قهوة كرتونية صغيرة ومضت تميلها يمينا وشمالا ثم عموديا وأفقيا ثم قالت متمتمة كأنها تحدث نفسها:

– أها..قاربت على النفاذ لم نقتنيها إلاّ منذ ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فقط، أصبح كل شيء ينفذ بسرعة.

– أكيد يا أمي، أكيد نحن عائلة ما شاء الله ونستهلك كميات كبيرة.

– المشكلة في الأسعار يا بني..لقد ارتفعت أسعار كل شيء إلى حدّ لا يطاق، هؤلاء التجار الملاعين يمصّون دماءنا في سبيل تحقيق الربح.. يا لهم من متوحشين.

– نعم، نعم هذا صحيح الأسعار أصبحت مرتفعة جدّا، ليكن الله في

عون أصحاب الرواتب الشهرية أي والله.. وهل تبقى لديك يا أمي ما يكفيك من مصاريف المنزل؟

– نعم، نعم لقد أعطاني أبوك في منتصف الشهر خمسة آلاف دينار، وقد أقسم لي بأن لا يعطيني دينارا واحدا قبل أول الشهر، أنت تعرف عادات أبيك فيما يتعلق بالمال، وقد صرفت منها ألفان وما تبقى سيكفينا حتى آخر الشهر، ولولا أن أخوك أخذ مني ألفاً اشترى بها حزام بنطال لبقي لدي أكثر.. لكن ما عساي أفعل؟ جميعكم تطلبون المال بينما أبوكم يعطيني القليل.. آواه.. عسى الله يمنحني الصبر..

– صحيح يا أمي صحيح، أنت محقّة.. محقّة في كل شيء قلته.. ليمنحك الله الصبر على هذا العبء الذي تحملينه.. ولكن يا أمي بودّي أن أطلب منك أنا الآخر مالاً.. لكن على سبيل القرض يا أمي.. قرض لمدة أسبوع.. أسبوع فقط..

نظرت إليّ نظرة جامدة، بدهشة فيها شيء من الامتعاض وكأنها ستمطرني بوابل من عبارات التوبيخ، ثم قالت مزمجرة:

– لقد أخبرتك توًّا بأنه لم يبقَ معي سوى ثلاثة آلاف دينار وهذا المبلغ لن يكفينا مدة أسبوع إلى حين راتب أبيك أولَا تفهم؟

– بلى بلى يا أمي، ولكنني أحتاج ألفا دينار بشدة.. بشدة يا أمي، أنت لا تتخيلين كم ستنقذينني حينما تعطيني ذلك المبلغ.. أرجوك، أرجوك يا أمي..

– وماذا ستفعل بهذا المبلغ كي أنقذك يا ترى يا حضرة..

أمممم..سكتت قليلا ثم قلت لها متنحنحا:

- أريد أن أقتني حذاءً..حذاءً جديدا، لدينا زيارة رسمية في المؤسسة يا أمي، سيزورنا عمدة المدينة يوم الخميس ومعه وفد من الأشخاص الرسميين، أنت لا تريدين أن يظهر ابنك المثقف بمظهر رديء أمام الضيوف يا أمي، حذائي مهترئ عن آخره، هل تقبلين يا أمي أن يسخر مني الناس، أو يقلّلون من احترامي بسبب حذائي؟ وكلّها مسألة أسبوع فقط حتى أتقاضى راتبي وأسلمك الألفي دينار.. أعدك بذلك.. لك كلمتي يا أمي..

- حسنا حسنا.. يا عزيزي سأمنحك المبلغ وما عساي أفعل.. أمري لله.. أدعو الله أن لا نحتاج مالاً هذا الأسبوع وإلاّ سيطردني أبوك.. بل حتمًا سيطردني هذه المرّة.. سأجلب لك المال وأعود.

لحظات وعادت أمي ومعها الألفي دينار، ورقتان منكمشتان مطويتان أكثر من اللازم كأنها كانت مخبأة في صرّة صغيرة أو في جحر، أخذت المبلغ ورسمت على محيّاي علامات السّرور، قبّلت يد أمي وجبهتها ثم غادرت إلى غرفتي فرحا مسرورا..

خبأت الورقتين كما هي مطوية في جيب بنطالي الصغير خشية أن تضيع، لأنها كانت تمثل كل آمالي، حشرتها بإصبعي إلى أن دخلت كاملة، ثم تحسّستها بكفّي ومضيت إلى النوم لما تبقى من سويعات لكنني عجزت عن النوم، فبمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة حتى تبادرت إلى نفسي مشاعر تأنيب ثم تحوّل ذلك إلى شعور بالخزي، و شيئا فشيئا بدأت باحتقار نفسي مما فعلته، إذ أخذت من

أمي تقريبا كل ما تملك!.. دون أدنى شعور بما تحمله من أعباء المسكينة.. بل إنني لم أحسّ بها حينما كانت تشتكي غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار وكان كل همّي أن أقتنص منها المبلغ.. المبلغ الذي أحتاجه أنا، ولو كان على حساب عيش إخوتي.. يا لقذارتي ويا لأنانيتي.. لكم هو مقزز أن يشعر المرء بكل وضوح بأنه أناني.. يعني أن يعي المرء بنفسه ويدرك أنانيته في لحظة ما.. كانت هذه المشاعر تطعنني في القلب وتفسد علي فرحة الحصول على المبلغ..
لكن هدية صوفيا أيضا لا تقل أهمية.. مهمة كثيرا بالنسبة لي.. بل إنها ستحدد مصيري.. ولو اتفق أن أخبرت أمي وإخوتي عن حكايتي مع صوفيا وكيف هي هدية ميلادها مهمّة بالنسبة لي، لتعاطفوا معي جميعا حدّ ذرف الدموع، ولمنحوني كل ما يملكون كي أحقق سعادتي، أوليس حالي البائس هذا يستحق كل الشفقة؟ أنا متأكد بأنهم سيأسفون لحالي وسيعطفون علي بدل أن يكرهوني لأنانيتي، لأنني لا أستحق الكره والبغض أقسم على ذلك.. يوما ما سأخبرهم جميعا بالأمر.. سأخبرهم بكل شيء وسيصدقونني لا لأنني ابن عائلتهم فقط بل لأنني بحق جدير بالتصديق وأفعل كل شيء بصدق وكل ما يبدر مني خيّرا كان أو شرا هو عفوي، لطالما كنت عفويا حتى اللحظة التي اكتشفت فيها وبعدَ صراع مع نفسي بأنني ارتكبت فعلا مشينا أذيت به أحدا ما دون أن أدرك ذلك في البداية، صدقني لم أدرك الأمر في البداية.. أو أنني أقدم على ذلك الفعل من أجل غايات بائسة، وأنا في الحقيقة لم أدرك تلك الغايات

البائسة إلاّ فيما بعد، بل لم أنوي تحقيقها أصلاً، لكنني ارتكبت ذلك الفعل البائس من أجل تحقيق تلك الغايات البائسة، هل تدرون أيها السادة أنه من أصعب الأمور على المرء أن يفهم نفسه فهمًا حقيقيا للحد الذي يمكّنه من وضعها على طاولة وتفكيكها قِطعًا قِطعًا والإلمام بجميع جوانبها.. إنه لمن الصعب فعل ذلك.. كم هو صعب على المرء أن يدرك إدراكا تاما حقيقة نواياه، كل أفعاله التي يرتكبها مع نفسه و مع الآخرين..

بيد أن الأمر غير مستحيل، بإمكان الواحد منّا أن يكشف الحجاب عن نفسه بجرعة وعي زائدة تجعله يتخطّى حدود العادي والمألوف، ويغوص في أغوار نفسه، صدقوني إنه عالم آخر.. عالم من الجنون..

لكن الأمر سينتهي به إلى احتقار نفسه واحتقار جميع المحيطين به، بل احتقار جميع الناس.. لما يراه من خبائث وشرور تملأ النفوس، حتى يغدو الجسد بالنسبة له كتلة صمّاء بائسة تحمل على ظهرها عبئًا ثقيلا.. ثقيل جدا... وهذا الوعي الزائد لا ينبغي العمل على تحقيقه أيها السادة لأنكم ستندمون، أقسم أنّكم ستندمون.. ففي البداية سيبدو الأمر ممتعا، لكنه مع مرور الوقت يغدو متعبا.. متعبا جدا..

لم يتبقى سوى يوم واحد على موعد حفل ميلاد صوفيا، فاليوم خميس ولا بدّ لي أن أقتني لها هدية راقية.. ولما لا تكون راقية؟ أليس لدي ألفا دينار و خمسمائة؟.. إنها ألفا دينار ..إنها تقارب ربع راتبي.. كنت أقول هذا لنفسي بينما أترجّل في الشارع الرئيسي للمدينة، وكنت عائدًا حينها من العمل، وقد كانت هبّات البرد

تخترق جسدي وتلسعني لسعًا، وكنت أفكّر في نوع الهدية التي سأقتنيها.. في الحقيقة كان هذا محور تفكيري طيلة الأسبوع بأنهُره ولياليه، لكنني لم أقف على رأي محدد بل تراني في كل مرة أغيّر رأيي، ففي البداية استقريت على زجاجة عطر ثم تراجعت لأنني فكرت في أن زجاجة العطر مهما كانت رائحتها شذية ستفرغ يوما ما، لكنني لا أريد هدية ينتهي أثري بانتهائها، بل أريد هدية تخلد وتبقى لأطول وقت ممكن كي تبقى صوفيا تتذكرني طبعا.. لا لشيء آخر.. وقد خطر لي أن أقتني دبدوبا صغيرًا لمحته هناك في أحد المحلات عند آخر الشارع، دبدوب أبيض مزركش بالحمرة على جوانبه، ومطرزّ على صدره قلب باللّون الأحمر.. كان يبدو رائعا ومناسبا جدّا كما لو بعثته الأقدار إلي.

في الحقيقة لم أُرد دبدوبا أحمرًا أو يغلب عليه الأحمر خشية أن يلفت الانتباه، ذلك أن الأحمر يرمز للحب، وهذا ما أردت إخفاءه سواء عن الحضور أو حتى عن صوفيا نفسها.. لكن تلك الزركشة الحمراء تهمّني بحق.. تهمّني كثيرا.. كما أنني اخترت الدبدوب بالذات كونه ليس من الأشياء التي تختزن أو تخبّأ، إذ كنت أعتقد كل الاعتقاد بأن صوفيا ستضعه حتما في إحدى زوايا غرفتها وهكذا ستراه يوميا، وهذا معناه أنها ستتذكرني يوميا بسبب ذلك الدبدوب، أو على الأقل سأخطر على بالها مرة في اليوم، وأين؟ في منزلها.. آآه كم لدي رغبة جامحة في أن أجعل صوفيا تتذكرني في منزلها و في غرفتها بالذات، وليس في أي مكان آخر.. إذ أنّ ذلك يشكّل فارقا

بالنسبة لي، إنه يشكّل لدي فارقا حقيقيا و قويا..إنني أشعر بهذا الفارق حقا.

غير أنني وعندما دخلت المحل و سألت صاحبه عن ثمنه تفاجأت، لمّا أخبرني بأنّه ألفان و ثمانمائة صعقت عند سماع ذلك.. ليس لأن ثمنه باهظ فحسب، بل كوني لم أكن أملك المال الكافي..

امتقع وجهي وتجمدت كالخشبة، وقد كان يحدق بي صاحب المحل بنظرات توحي بأنه أدرك بأنني لا أملك مالًا كافيا، لقد قرأ هذا في وجهي، بيد أنني غطيت على نفسي كي لا أشعر بالمهانة، فقلت له:

- أتعلم يا سيدي الكريم.. أتعلم.. لقد مررت من هنا صدفة وقد أعجبني هذا الدبدوب وابتغيت شراءه كهدية لزوجتي، من غير مناسبة يا سيدي الكريم ..هكذا خطر لي هذا..أوَلَا تستحق الزوجات منّا أن نسرّ قلوبهن أحيانا؟

بدَا الرجل مستغربا قليلا وقال:

- بلى بلى تستحق منّا بالتأكيد.. هل تريد واحدا يا سيدي؟

- آه يا سيدي الكريم تمنيت هذا لكنني لا أملك سوى ألفين و...أقصد لا أحمل في محفظتي سوى ألفين وخمسمائة.. إنه الحظ يا سيدي.. الحظ.. ربما سنعود في مناسبة أخرى..

- لا عليك، لا عليك.. سأبيعك إيّاه بألفين وخمسمائة..لا مشكلة.. ففي النهاية الزوجات يستحققن ما يفرح قلوبهن..

وقد رجعت حينها إلى بيتي فارغا.. فارغا بأتم معنى الكلمة، كنت ممتعضا، ممتعضا جدا ..

سيكون الأسبوع القادم لعينًا بالتأكيد.. لقد فرغت جيوبي بالفعل ومضيت أتحسّس كل جيوب بنطالي، لم يتبقَ لي شيء، حتى حقوق تنقلي من المنزل إلى المؤسسة أنفقتها في ثمن ذلك الدبدوب الّلعين...ماذا؟... الّلعين!؟..لا لا إنه ليس لعينًا البتّة.. إنه دبدوب غالٍ ثمين سنقدّمه كهدية إلى العزيزة الغالية.. طبعاً.. طالما سنقدّمه إلى العزيزة الغالية فهو حتماً عزيز وغالٍ ..نعم نعم.. كيف لا يكون؟ هكذا وضعته بجانبي في سريري و مضيت أحدق فيه طويلا.. أتحسّسه وأتلمّسه..يا لك من بهيّ جميل أيها الثمين.. أيها العزيز.. ترى هل ستفهم صوفيا ما تحمله لها بداخلك أم ستراك مجرّد دمية جامدة محشوة بالصّوف؟ هل ستفهم صوفيا ذلك الطرز الأحمر الذي يزين جوانبك.. وذلك القلب الذي على صدرك المتوهّج بالحمرة.. ثم احتضنته.. يا عزيزي النفيس خذ لها سلامي وأبلغها بأشواقي.. احكِ لها كيف أحتضنك وأعانقك.. أخبرها كيف أنني حنون.. وطيب لا تنسَ ذلك، ثم أرجعته إلى مكانه وأشعلت سيجارة ومضيت أتأمل في الغرفة، لكنني تذكرت بأنني قد أفلست إفلاسا تاما للتّو.. وأنني لا أملك حتى مصاريف التنقل إلى دار الشباب مكان الحفل، والتي تبعد عن منزلي زهاء ثلاثة أميال، تذكرت أمي كيف أعطتني المال.. تذكرت نظرة صاحب المحل تلك.. شعرت بالخيبة.. نوع من الخيبة أقرب به أن يجعلني أفقد احترامي لنفسي شيئا فشئا..ثم نظرت للدبدوب فبدَا لي مجرد شيء وضيع حقير وعاجز.. بدون أيّة قيمة.. لقد كرهته في تلك اللحظة.

نعم كرهته.. ولا زلت أكرهه حتى اللّحظة، ولو بقي عند صاحب المحل الذي اشتريته منه لبقي جميلا بهيّا، لكنني كرهته لمجرّد أن أصبح ملكي.

كما أنني قد تنازلت عن فكرة اقتناء ملابس جديدة، ذلك أنني لم أكن أملك المال..يا لسذاجتي كيف لي أن أفكّر في ملابس جديدة و أنا أفتقر حتى لمصروف يومي بسيط، فما كان لي سوى أن أقلب في خزانتي عسى أن أجد أفضل ما أملك من ملابس ولو كانت قديمة، فاخترت منها قميصا أسودا تتخلّله بقع بيضاء من كثرة الغسيل، لكنني قلت لنفسي سأضع فوقه معطفا سميكا أسودا فيغطي تلك البقع ولن تظهر، لكن المشكلة في البنطال.. هو فعلاً بنطال أصفر داكن جميل، لكن أبشعته بقع بنيّة عند الردف الأيمن، بقع بنية فاتحة..لكن لا بأس لا بأس دعنا نرتديه طالما أن الحفل سيكون وقت المغرب فسيكون قد حلّ بعض الظلام، وربما حينئذٍ لن تبدو تلك البقع للحضور، أمّا إذا كانت القاعة ذات إنارة شديدة فحتما ستظهر تلك البقع.. لكن لا أعتقد أنه سيتم إنارة المكان إنارة شديدة، فهذا حفل ميلاد وليس حفل زواج.. دعنا نرتديه إذن وأمرنا على الله.

كانت الشمس قد قاربت الغروب، مجموعة من السيارات مركونة أمام دار الشباب حوالي عشر سيارات، العديد من الأشخاص-رجال ونساء-يدخلون تارة ويخرجون تارة أخرى.. كنت أراقب الجو هناك من زاوية قريبة، أتحيّن الوقت المناسب للدخول، الوقت الذي يكون فيه المدخل خالٍ من الأشخاص، ثم

مضيت بخطوات بطيئة نحو الداخل حتى إذا تجاوزت المدخل ببضعة خطوات سمعت صوتا خشنا لرجل يقول:

- هاي أنت عندك.. إلى أين أنت ذاهب؟

تجمّدتُ في موقعي برهة ثم استدرت بجسدي نحوه، فلاحَ لي أنه الحارس، تجمّد وجهي ذهولا:

- أوليس ثمة حفل هنا اليوم؟ حفل ميلاد إحدى الفتيات..

- نعم، نعم وهل أنت من المدعوين؟

اكفهرّ وجهي وقلت له غاضبا:

- وماذا تعتقد إذن، أنني أتيت هكذا بلا دعوة، وهل يحضر المرء حفلا بلا دعوة؟ هل تظنني متطفّلا.. ها؟

- بلى، بلى يا سيدي حاشا حاشا فقط أردنا أن نتأكد.

- أولم ترَ أنني أحمل كيسا.. كيسا بهذا الحجم ..فلا بدّ أنني أحمل هدية وإذا كنت أحمل هدية فلا بدّ أن أكون من المدعوين ألم تلاحظ ذلك؟ كنت أتكلم بشيء من الصراخ.. من فرط الغضب ودون أن أعي بنفسي، وقد كان كل من يدخل ينظر إلي نظرة استغراب.. فزاد غضبي.

- عفوا يا سيدي لم ألاحظ.. أعذرنا يا سيدي رجاءً

كنت غاضبا جدا في تلك اللحظة، رميته بنظرة احتقار ومضيت في طريقي إلى القاعة، بيد أنني شعرت بالإهانة داخل ذلك الغضب ومضيت أفكر متسائلا؟ ترى لماذا أوقفني ذلك الحقير أنا بالذات ولم يوقف أحدًا آخر غيري؟ فالجميع كان يدخل و يخرج كيفما يشاء..

لماذا أنا.. ذلك اللّعين الكلب ربما عاملني وفقا لمظهري.. ماذا؟.. مظهري!.. وما به مظهري؟ لربما لاحظ تلك البقع البنية على البنطال..فاحتقرني من أجل ذلك.. ربما، نعم ممكن.. بل هذا هو الصحيح.

فالناس في هذا الزمن يحترمون بعضهم من أجل مظاهرهم، لطالما عرفت أشخاصا يكسبون احتراما وتبجيلا من الغرباء لمجرّد أنهم يهتمون بمظهرهم وأنيقين، ويرتدون ألبسة جميلة وباهظة، وهم في الحقيقة مجرد أغبياء وسذج وملاعين لا يستحقون كل ذلك الاحترام، والذين يمنحون ذلك الاحترام المجاني ليسوا أكثر من معتوهين، إذ يبدو لهم من يهتمون بمظهرهم أشخاصا أثرياء وأغنياء وذوي نفوذ وهم يتشرّفون بمعرفتهم ومخالطتهم. يتشرّفون كثيرا.

لقد أصبح الجميع يريد أن ينال نصيبه من هذا الاحترام المزيف، فالموظف الذي ينال راتبا قدره عشرين ألف دينار ينفقه كله في اقتناء حذاء فرنسي أصلي، والشاب الذي يعمل ميكانيكي يفني راتبه كله في الألبسة البيضاء الباهظة الثمن بغية الإثبات لنفسه وللناس بأن طبيعة عمله لن تمنعه من الظهور بمظهر المحترم والمبجل.. والجميع يفعل هذا.. كل لديه سبب خاص على ما يبدو، بيد أن الواقع هو أن الجميع يبحث عن الاحترام في مظهره.. فاختلط الحابل بالنابل وضاع مفهوم الاحترام.. لم يتبقَ سوى أولئك المنكوبين حقا، ممن يكافحون زمانهم، يحاربون من أجل لقمة عيش.. من أجل كيس حليب لأطفالهم.. الذين لم يوفّروا لأنفسهم دينارًا واحدًا.. أولئك

من فقدوا احترامهم في هذا الزمن الذي ضاعت فيه كل القيم.. أولئك الذين هم أحق وأجدر بكل الاحترام.

كانت القاعة واسعة بالقدر الذي يطيق مئة شخص، شلّات هنا وهناك يتحادثون و يتضاحكون، لم ينتبه إليّ أحد، فوقفت وحيدا في مؤخرة القاعة وكنت أضع إحدى يداي في جيب بنطالي صانعا ابتسامة مزيفة حقيرة، أبحث بعيناي في وسط الحضور عن أشخاص قد أعرفهم، لمحتُ مريم من بعيد كانت ترتدي جلابة خضراء وهي ممسكة بإحدى يديها صبية، لاح لي أنها إحدى بنات أختها، وكانت بجانبها امرأة تبدو في عقدها الخامس لم أتعرّف عليها، كانت تبدو في أوج البهجة والسّرور، وهناك في الأمام مائدة ضخمة موضوع عليها أنواع من المشروبات وقارورات مياه معدنية بلاستيكية وأطباق كعك وحلويات.. ومجموعة من الشموع الطويلة وردية وحمراء وخضراء وُضعت بانتظام على حواف المائدة، كانت الجدران بيضاء ناصعة ألصقت بها مجموعة من القصاصات تحمل عبارات التهاني والتماني، أدرت رأسي يمينًا فلمحت السيد وحيد، وقد كان على بعد أمتار قليلة عن المكان الذي أقف فيه، وكان يقف رفقة اثنين أحدهما بدين طويل يبدو في الثلاثينيات يرتدي لباسا أبيض وأحمر خفيف شبه رياضي، كرشه بارزة لاح لي أنه تاجر أو ما شابه، كان يتحدّث و يداه ترتفعان وتنزلان وتتحركان تناسقيا مع حديثه، وكانت نظرات السيد وحيد إليه تشي بأنه شخص صاحب نفوذ أو من المرموقين اجتماعيا لأنه كان ينظر إليه بشيء من التبجيل، وكان معهما شخص

آخر طويل ونحيف، يبدو في مثل سنّي أو أكثر قليلا، ذو شعر أصفر ذهبي وبشرة بيضاء وكان مبتسما باستمرار، يرتدي لباسا شبيه بلباس رسمي، وكان يضع كلتا يديه في جيوب بنطاله، وينظر على يمينه ثم شماله بين الفينة والأخرى، ثم يخرج يده من جيبه ويتفحّص ساعته كما لو كان ينتظر أحدًا ما، لم ينتبه لوجودي السيد وحيد، وقد فكّرت في أن أنضمّ إليهم لأنني شعرت بالخجل من وقوفي وحيدا، لكنني تراجعت لأن انضمامي إليهم سيشكّل لدي خجلا أكبر، لذلك فضلت أن أبقى وحيدا وكنت بين الحين والآخر أذهب إلى قنينة الماء الموضوعة هناك وأملأ كأسا أشربه ثم أقف برهة وأعود إلى قنينة الماء، لأنني لم أجد شيئا آخر لأفعله، كما أن بقائي واقفا لوحدي متجمّدا دون حركة، سبّب لي شعورا أقرب إلى الدونية، وكنت أتصوّر نفسي كاليتيم بدون رفقة بينما الجميع كان يتسمتع بالرفقة والحديث.

حتى سطعت صوفيا من هناك، كالشمس في صباح ربيعي، أو كالقمر في العتمة.. نعم هذا أفضل سطعت كالقمر في العتمة، لأن القاعة كانت تبدو لي كالعتمة إلى أن جاءت صوفيا فأنارت الأرجاء.. أنارت كل شيء.

كانت ترتدي فستانا طويلا أحمرا مزركشا بورود بيضاء وحمراء، مشدودة خاصرتها بحزام حريري أصفر ذهبي، وجهها يشعّ من بعيد كالمصباح، وعيناها تبرقان بريقا من دمع الفرح والغبطة، بدأ قلبي يزيد من نبضه، ونسيت كل ما كنت قد شعرت به سابقا

وأصبحت لا أعي شيئا مما حولي سوى صوفيا ..فقط أنظر إلى صوفيا، كانت صديقاتها تتسابقن إليها من أجل تهنئتها وتقبيلها، ومضى الجميع ينشد لها أنشودة عيد ميلاد سعيد، وبدأت التصفيقات تملأ المكان وزاد الصخب بينما بقيت هادئا مردّدا في تمتمة أنشودة عيد ميلاد سعيد، ثم جلست صوفيا على أريكة ذات مقعدين كانت قد خصّصت لها، وجلست بجانبها تلك المرأة التي كانت تقف قبل قليل بجوار مريم، لاح لي أنها والدة صوفيا من خلال تعابير وجهها وهي برفقتها وكيف كانت في قمة بهجتها وسرورها وهي تقبّلها بين الحين والآخر، وكانت سيدة أخرى تقف بجوار صوفيا من الجهة اليسار، تنزل بالنصف العلوي من جسدها كل برهة لتحدثها ثم تعود وتنتصب، كانت على شبه كبير من والدة صوفيا فلاح لي بأنها خالتها أو إحدى قريباتها من جهة والدتها، وبينما كنت أراقب المكان الذي تجلس فيه صوفيا اقتحمني السيد وحيد بالسلام:

- أرى أنك تقف وحيدا.. يبدو أنك وصلت للتّو.

- لا لا وصلت منذ نصف ساعة تقريبا ..كنت واقفا هناك في تلك الزاوية برفقة أحد معارفي القدامى..

مدّدت رقبتي ورفعت أنظاري للأعلى كأنني أبحث عن أحدهم وسط جموع الناس.

- لا أعرف أين ذهب ذلك المعتوه هههه.. يبدو أنه في رفقة أخرى، قل لي إذن كيف حالك يا سيد وحيد؟

- بأفضل حال .. والحمد لله لقد وصلت منذ نصف ساعة أيضا

لكنني لم أنتبه لوجودك، لا بدّ أنك كنت مختبئا.

- لا لا إطلاقا ومن ماذا أختبئ؟ أنا أيضا لم أنتبه لوجودك، أنت ترى هذا الجمع الكبير لو أضاع أحدهم فرد حذائه فلن يجده هههههه.

- آه نعم نعم، فعلا لم يكن أحد ليتصوّر أن صوفيا لديها كل هؤلاء المعارف والأقارب..

- حسنا إذن.. هيّا بنا نقترب لنهنئ صوفيا.

- أكيد هيّا.

مضيتُ نحو صوفيا والحق أنه لولا السيد وحيد لبقيت واقفا مشاهدا متجمّدا مكاني ولم أقوَ البتّة على مقابلتها، ولأمكنني أن أرجع بذلك الدبدوب إلى بيتي بكل بساطة، ذلك أنني صدمت من مظهرها ومن جمالها وشعرت بغيرة تقطّع قلبي لدرجة أنني نزلت بنفسي أدنى المنازل وشعرت بأن وجودي كعدمه، وبأنني آخر شخص تنتظره صوفيا.

تقدّمنا نحو الأريكة التي كانت تجلس عليها وكان حولها نفر من الفتيات، كان السيد وحيد أمامي فبادر أوّلا لتهنئتها، ثم تقدمتُ نحوها في خجل ووجل شديدين، وهنأتها وتمنّيت لها عمرا مديدا وقد فرحت بتواجدي.. فرحت كثيرا ..هذا ما رأيته في عينيها.

لحظات وحملت مريم ميكروفون كان موضوع على طاولة صغيرة جانبا، وأعلنت عن موعد تقديم الهدايا قبل تقطيع الكعكة، فهرع الحضور قرب صوفيا وتجمّعوا حولها، وكانت مريم أول من سلّم صوفيا الهدية، كانت علبة صغيرة مغلّفة بورق أزرق لا يمكن

التعرّف على ما في داخلها، وكان الجميع يصفق ويغني لها ويتقدّمون واحدا تلو الآخر بهداياهم وتهانيهم، حتى اقتنصت فرصة وتقدّمت بدوري، نزعت الكيس من على الدبدوب و سلمته لصوفيا مبتسما ابتسامة بريئة من كل قلبي، ففرحت كثيرا ومضت تحملق فيه وهي ترسم على وجهها الجميل ابتسامة جميلة، وكدت أطير فرحا حينها، فتحسّن مزاجي كثيرا ونلت بعض الرضى عن نفسي، إلى الحين الذي تقدّم فيه السيد وحيد وأخرج من جيب معطفه علبة صغيرة بحجم علبة سجائر، ثم همّ بفتحها بطريقة متباطئة كما لو يريد لفت انتباه الجميع إليه، وأخرج من تلك العلبة ساعة ذهبية مرصّعة على حوافها بشكل دائري، تبرق بريقا وقدمها لصوفيا والجميع يتأوّه ذهولا من شدة جمال تلك الساعة الذهبية، أمسكتها صوفيا من يديه ومضت تقلبها وتتفحصها مبدية إعجابا كبيرا وهذا ما حزّ في نفسي وجعلني كالمجنون من فرط الغيرة، ومضيت إلى الوراء شيئا فشيئا وبخطوات بطيئة كي لا تنكشف ملامح وجهي التي تغيرت تغيرا واضحا، وكانت تشي بغيرة أوضح من الشمس، وكنت أنظر بحقد شديد للسيد وحيد وهو يقف وقفة تكبّر كأنه سلطان في ملكه ووجهه ممتلئ غبطة وسرورا، ثم أدار رأسه ناحيتي ورماني بابتسامة جافّة فجنّ جنوني أكثر.

والحق أنني شعرت بتلك الغيرة ليس فقط لأن هدية السيد وحيد أغلى وأثمن من هديتي، بل كان ذلك في نظري يدلّ بوضوح على أحد الشيئين، فإمّا أن السيد وحيد يكنّ لصوفيا مشاعر الحب وهذا

ما يجعله يهديها شيئا باهظا كتلك الساعة، وإمّا أنه فعل ذلك نكاية فيّ، بغية إذلالي وتحطيمي كي يثبت لي بأنه أعلى مني شأنا، وفي كلتا الحالتين فإنني أعتبره غريمي وعدوّي وإلاّ فكيف له أن يفعل شيئا مماثلا وهو يعلم بأنه سبّب لي ضررا بالغا.

لقد دخلت حينها في هستيريا من الغضب وصرت لا أعي شيئا حولي، أخرجت علبة السجائر ومضيت نحو النافذة أدخن بشراهة السيجارة وراء السيجارة، تسارعت نبضات قلبي وبدأت أتعرق، شعرت بضيق في التنفس ففتحت المعطف ثم فتحت أعلى أزرار القميص ومضيت أستنشق بعض الهواء، لكنني تذكّرت حينئذٍ تلك البقع البيضاء على القميص فسارعت بغلق المعطف، حاولت أن أتمالك نفسي وأستعيد بعضا من توازني وبدأت شيئا فشيئا أتحكّم في أعصابي وفي ملامح وجهي ثم ارتديت قناع الهدوء بشق النفس، واستدرت بجسدي إلى الحفل كأنّ شيئا لم يكن.

كان الجميع يتحدثون فيما بينهم وعلامات البهجة بادية على وجوههم، أمّا أنا فقد تجمدت مكاني كالحجر ودخلت في دوّامة تفكير.. ذلك النوع من التفكير الذي يُفقد الواحد منا وعيه. على أنني كنت أخفي شرودي وسرحاني، كنت أفتعل تحريك عيناي هنا وهناك كي أخفي عن الجميع انكساري وكأنني مندمج في الحفل، غير أنني كنت في عالم آخر.. عالم سفلي حقير.

بينما كنت على تلك الحال، تسرّب إلى مسامعي صوت خافت فبدأت أسترجع وعيي شيئا فشيئا، لقد كانت مريم تطلب من الحضور أن

يلتفتوا لأمر ما.. وعبر المايكروفون تقول:
- سيداتي وسادتي أرجوكم أن تمنحونا انتباهكم من فضلكم، ثمة أحد من أصدقاء صوفيا يريد أن يقول شيئا ما.. لو سمحتم أيها السادة والسيدات.
فاستدار الجميع نحو مريم، واستدرت كذلك ورحت أصب جامّ تركيزي على هذا الأمر، وإذا بذلك الشاب النّحيف ذو الشعر الذهبي الذي كان برفقة السيد وحيد يتقدم بخطوات خجولة وسط الجموع، ووقف عند الأريكة التي تجلس عليها صوفيا، ومضى يكلّم تلك المرأة التي كانت بجانبها هامسا في أذنها، ثم أخرجت تلك المرأة من صدريتها علبة صغيرة حمراء اللّون لم أستطع معرفة ما هي بالضبط وناولته إيّاها ثم قبّلته اثنين على خدّيه، تقدّم الشاب نحو مريم وطلب منها الميكروفون ووقف مقابل جموع الحضور:
- أيها السيدات والسادة اسمحوا لي أن أقول كلمة موجزة في هذه المناسبة السعيدة.
قال الجميع بتمتمة: تفضل تفضل.. حسنا.. حسنا..
- يا إلهي لكم هو عظيم هذا اليوم.. عظيم فعلا بالنسبة لنا جميعا.. إنه يوم ميلاد عزيزتنا صوفيا.. نحن هنا لنفرح ونغني لأجلها.. أليس كذلك.. ثم أدار رأسه نحو صوفيا وهي منتشية من البهجة والسعادة بادية على وجهها:
- عيد ميلاد سعيد يا عزيزتي صوفيا.. يا ابنة خالتي العزيزة.. كل عام وأنت بألف خير أتمنى أن لا أرى حزنك أبدا.. أتمنى أن تعيشي

بقية حياتك سعيدة مغتبطة.. فليمنحك الله السعادة طيلة عمرك يا ابنة خالتي العزيزة.. ولتقبلي رجاءً..اقبلي مني هذه الهدية البسيطة..
ثم أخرج من جيبه تلك العلبة الحمراء، وتقدّم نحو صوفيا وفتح العلبة وأخرج منها عقد ذهبي وطلب منها أن تنكس رأسها بغية إلباسها ذلك العقد، ففعلت وبدأ الجميع بالتصفيق والتغني وكانت صوفيا ممتلئة غبطة وسرورا.. هذا ما رأيته في عينيها، وقد كانت تلك المرأة التي عرفت عندئذٍ بأنها خالتها وهي والدة ذلك الشاب أيضا، كانت في قمّة سعادتها وفرحتها كما لو رأت ابنها عريسا، وكانت المرأة الأخرى التي هي على الأغلب والدة صوفيا، تكاد تطير فرحًا.. حتى مريم كانت فرحة جدا...كان الجميع فرحًا.. الجميع كان سعيدا جدًّا..
أُصبت بانهيار في تلك اللحظة وتمنيت لو لم أحضر هذا الحفل من الأصل، لقد سبّب لي هذا المشهد أكبر ألم شهدته في حياتي، حتى باتت ساعة السيد وحيد تمثّل بالنسبة لي أمرًا يسيرًا مقدورا عليه.. يسيرًا جدًّا أمام ما فعله ابن خالة صوفيا هذا، لقد شعرت في تلك اللّحظة بفقدان جزء من عقلي، من قوة الصدمة.. يعني دخلت الجنون لوَهلة ..ففي اللحظة التي أخرج فيها ذلك العقد وبينما هو يلبسها إيّاه، لم أتوتر ولم أغضب ولم تخرج مني قطرة عرق واحدة كما حدث مع ساعة السيد وحيد، بل كنت هادئا أشاهد ما يحدث أمامي، لكنني شعرت حينها بأنني قد قهرت تمامًا ولم أعد قادرًا حتى على الغضب.

قرّرت المغادرة فورا، لأنني لم أجد شيئا آخر كي أقرر فعله فانسحبت خفية، وما إن خرجت من القاعة حتى بدأت أترامى يمينا و شمالا كالمخمور، كنت أمضي بخطوات غير متوازنة ولم أكن آبه لأي شيء في طريقي أو لأي أحد، لقد سقطت مرّتين في طريقي إلى المنزل وتلطخت ملابسي بالوحل، ولكنني لم أعر ذلك اهتماما ولم أتفحّص ملابسي حينما سقطت، بل كان كل ما بودّي أن أفعله هو الاستمرار في المشي.. الاستمرار في المشي فقط دون أن أتوقف.

لقد انتابني الفزع في تلك الليلة حتى لزمت فراشي منكمشا مرتجفا كطفل صغير، ومضيت أتقلّب يمينا وشمالا، كنت أفكر وأفكر مفزوعا، أعيد تكرار المشهد الذي صدمني عدة مرّات، لإثبات أنه فعلا حدث شيء يصدم المرء، لأنني لم أصدّق ما حدث أمام عيناي.. لم أصدّق وجود احتمال بأنّ صوفيا قد تكون لرجل آخر.. غيري، وقد نمت على تلك الحال من فرط التعب والإرهاق ومن كثرة ما آلمتني عظامي، غير أنني كنت أستيقظ باستمرار ليلتها.. وكنت أستيقظ مفزوعا كما لو رأيت كابوسا، وكانت آخر مرّة استيقضت فيها عند الفجر ولم أنم بعدها، بل مضيت أفكّر في حفل البارحة أفكّر مستسلما بأن كل شيء انتهى، انتهى الحلم حتى قبل أن يكتمل.. إذ صوفيا ابنة رجل آخر.. ومن؟.. ابن خالتها ومن يدري لعلّ قصة حب بينهما كانت مخفية منذ مدة.. بينما كنت أنسج الوهم.. كنت أعيش في الوهم طيلة هذه المدة.. يا لغبائي ويا لسذاجتي، هو قريبها وبالتأكيد سيحصل انسجام بينهما بسهولة، أضف أنه شاب

وسيم و يبدو مرتاح ماديا.. لقد أهداها عقد ذهبي!!..عقد ذهبي ثمنه آلاف الدينارات!..هذا إنما يدل على أنه يكنّ لها مشاعر حب جبارة وينوي الزواج منها لا محالة، أوَلم ترَ كيف كانت ملامح وجه أمه تتدفق سعادة عندما رأته يضع العقد على رقبة صوفيا؟، وهذا إنما يدل على أنها تتمنى ومن كل قلبها صوفيا لابنها، حتى صوفيا كانت بهيجة ومسرورة كذلك، لربما هي الأخرى واقعة بحبه أو معجبة به.. ربما..إنّ عقدًا مثل هذا الذي أهداها سيجذب أيّة فتاة حتمًا ..لاشك في أنه من عائلة غنية.. نعم.. غني ووسيم.

ولكن، ومهما يكن فلا يمكن للمرء أن يعرف ما يكنّه ويبطنه الناس لبعضهم البعض، يعني صحيح أنّ والدة الشاب كانت سعيدة و بهيجة وكانت صوفيا تبدو كذلك، لكن هذا لا يعني بأنها تحبه وتعشقه وستتزوجه، فربما أبدت تلك البشاشة والبهجة لأنها خجلت أمام الحضور وكان لزاما عليها أن لا تحرجه بنظرة عبوسة، نعم من الممكن أن تفعلها صوفيا أنا أعرفها ..ولطالما عرفتها متفهّمة... متفهّمة جدّا وقد تفعل أشياء مماثلة في مواقف مماثلة، ومن المحتمل أن تكون لا ترغب به من الأصل، وأن كل ما دفعني لمغادرة الحفل مجرد وهم.. حدث لي من فرط الغيرة.. نعم، نعم ممكن وهذا هو أقرب الاحتمالات، فكلّ ما يبدر عن الأشخاص نسبي.. نسبي إلى الحد الذي لا يمكن معه الجزم بالدوافع والبواعث الحقيقية للتصرفات.. لقد ظلمتك إذن يا صوفيا يا محبوبتي الغالية.. ظلمتك كثيرا إذ غادرت الحفل قبل أن أتذوق من كعكتك.

لكنه عقد ذهبي يا رجل!.. عقد ذهبي كامل!، حتى لو كانت هي لا ترغب به فالمؤكد أنه يرغب بها و بشدّة، وهذا سبب كافي ليجعلني شقيا تعيسا، ثم ألم ترَ كيف كان ينظر إليها بتلك النظرات.. أنا أعرفها.. أعرف معاني تلك النظرات جيدا.. أعرفها معرفة الخبير.. وطالما تربطهما علاقة قرابة فهذا كفيل بتسهيل كل ما سيصعب عليهما.. بل هذا كفيل بدماري.. يا إلهي يا لشقاوتي.. أواه أواه..

عزمت إذن بأن لا أذهب إلى العمل في اليوم الموالي، لأنني لم أكن قادرا على مواجهة أي من الناس وخاصة زملائي في العمل بما فيهم صوفيا، فلزمت غرفتي وظللت في فراشي طيلة اليوم، لقد شعرت بتعب.. تعب رهيب وكان لا بدّ لي من بعض الرّاحة ولو ليوم واحد، على أنني فكّرت في أمر التغيب في تلك الليلة المشؤومة، فكّرت في حالة ما إذا أثرت شكوك صوفيا أو مريم أو السيد وحيد بهذا التغيب، كنت أخشى أن يتفطنوا لأمري إذا ما تغيبت، لكنني وتحت وطأة الخيبة وذلك الكمّ من الحزن الذي أصاب قلبي وانعكس على محيّاي، قرّرت بأن لا أذهب بداعي المرض، أما اليوم الذي ذهبت فيه إلى العمل فقد دخلت المؤسسة في الصباح ولم أعر صوفيا حينها أيّ اهتمام، كأنني لا أراها أو كأنها غير موجودة، ومضيت إلى مكتبي مباشرة، لكن الجميع كان ينظر إلي كأنني غريب عنهم حتى ظننت بأنهم رأوا فيّ شيئا غير معتاد، فخشيت أن يكونوا قد تفطنوا لأمري، تفطنوا لمغادرتي الحفل باكرا وأنني انزعجت من ابن خالة صوفيا، ذلك أنني أحبها ولم يكن بوسعي تحمّل المشهد،

شككت في ملامح وجهي وأنها تعكس كآبة وحزن، وحاولت إخفاء ذلك بكل ما أوتيت من قوة، حاولت أن أظهر بمظهر المرتاح وأن لا أتساءل عن سبب نظرتهم إلي هكذا، لكن الشك والريبة قتلاني ولم أتحمل نظراتهم تلك، فخاطبت السيد وحيد متسائلا:

- هل من خطب ما يا سيد وحيد؟

- لا، لا شيء لماذا تسأل؟

- أمم لا أعرف لاحظت أن الجميع ينظر إلي بنظرة غريبة غير مألوفة فظننت أنه ثمة شيء ما حصل أو...

- لا، لا إطلاقا كل شيء على ما يرام.. لا يوجد ما يستدعي القلق ربما أنت توهّمت هذا فقط.

- ماذا!! توهمت؟! ماذا تقصد بتوهّمت هذا يا سيد وحيد؟

- عذرا.. عذرا لم أقصد شيء. .لم أقصد الإساءة بل قلت ربما أنك اعتقدت هذا فقط.

- ثمة فرق بين الاعتقاد و التوهّم يا سيد وحيد اضبط مفرداتك رجاءً..

- أمم حسنا حسنا، يبدو أنك اليوم بمزاج سيء وأنت تفتعل المشاكل للتّو، لكنني أعذرك على أية حال.

- لا لا ليست مسألة مزاج أو شيء من هذا القبيل، كل ما في الأمر أنني مريض.. مريض يا سيد وحيد، وما كان ينبغي لي أن آتي إلى العمل اليوم أيضا.. أنا أحس بدوار شديد يا سيد وحيد وألم في صدري.. ذلك الزكام اللّعين ..

- لقد سألت عنك المديرة، قالت بأنها تريد أن تتحدث معك بشأن ما.
- ماذا؟ سألت عني؟ هل تخبرني بأنها انزعجت بسبب تغيبي عن العمل يوم أمس؟
- الله أعلم.. ربما ثمة أمر ما ..لما لا تذهب و تسألها بنفسك..
- نعم نعم سأذهب، بالتأكيد سأذهب..يجب أن أعرف لماذا سألت عني المديرة.
- مضيت نحو مكتب المديرة، دققت الباب ثم دخلت بخجل ووجل كبيرين، ذلك أنني ظننت بأنها ستستفسر عن سبب تغيبي بالأمس..
- صباح الخير يا سيادة المديرة، لقد أخبرني السيد وحيد بأنك سألتِ عني اليوم وأنك تريدين أن تتحدثي معي في أمر ما؟
- آه..نعم نعم لقد سألت عنك بالفعل..
- إذا كان الأمر يتعلق بتغيبي يوم أمس، فلتعلمي بأنه اشتدّ عليّ المرض إلى الحد الذي أصبح معه من المستحيل أن أخرج من المنزل.. إنه ليس ذنبي يا سيادة المديرة.. فهذا هو الشّتاء.. يكثر فيه الزكام ونزلات البرد..
- لا لا الأمر لا يتعلق بتغيبك.. الجميع يحصل له مانع يستدعي التغيب.. هذا أمر مألوف لا عليك لا تقلق ...
إنما الأمر يتعلق بمهام التوصيل.. التي أخبرتك عنها من قبل، لقد تكدّست الرسائل ونحن لم نوصل أيّا منها منذ رحيل عبد الرزاق،

والزبائن قلقون جدا.. وأنت تعلم أننا لا نريد أن نخسر زبائننا ..إذن يتعيّن عليك من يوم الغد أن تتحول إلى التوصيل..

آه.. هكذا إذن.. لكن ماذا عن السيد وحيد؟

السيد وحيد؟.. لقد أخبرني بأن العمل منكبّ عليه، وأنه لم يلحق نفسه من الكمّ الهائل الذي فوق رأسه.. وإن كنت قلقا من مسألة العناوين فالسيد وحيد سيساعدك في ذلك، لقد أخبرني بأنه مستعد لتقديم المساعدة أين احتجت.. المهم.. المهم أن تسارع في توصيل رسائل الناس بالقدر الذي أمكنك ..يا إلهي العمل فوق رؤوسنا.. نحن نعاني من ضغط رهيب.. رهيب.

لقد وافقت حينها ولم أضف على كلام المديرة حرفا واحدا، وافقت مكرها وراضيا في آن واحد، مُكره لأن المديرة أجبرتني على القيام بمهام تدخل في إطار عملي كموظف أجير، حتى وإن كان ذلك مخطّطا له من قبل السيد وحيد، وراضي لأنه لا شيء لدي لأخسره، فالسبب الذي جعلني أتمسك بالبقاء داخل المؤسسة قد زال.. صوفيا من نصيب رجل آخر هذا أمر شبه محسوم، إذن فما الحاجة للبقاء بجانبها لوقت طويل.. ثم إنّ صدمة مثل التي حدثت معي في الحفل تجعل المرء ينسى ذاته ولا يولي أيّ اهتمام لما يحب فعله وما لا يحبه ..فكل شيء يصبح سواء.. تترادف جميع المتناقضات في عين المرء..بما فيها الموت والحياة..

لقد كرهت كل شيء.. كرهت جميع الناس أيضا.. كرهتهم جميعا.. لأنني كرهت ذاتي أيضا، وقد كرهت ذاتي لأنني كنت أتذكر

باستمرار تصرفاتي وسلوكاتي البائسة مع صوفيا والسيد وحيد، تلك التصرفات التي كنت أفعلها لأجل شيء في نفسي غريزي.. غير أنه كلما مرّ شريط على ذهني من تلك التصرفات أشعر بالحقارة والخجل من نفسي، لدرجة الاعتقاد بأنني لا أستحق التواجد على سطح الأرض، وأنني مجرّد كائن بشع لا يستحق الحياة مع هؤلاء الناس الجميلين.. بل إنّ الحياة لتغدو جميلة ناعمة من دوني، وهؤلاء الناس جميلون فعلاً.. هل تدرون ما السبب في أنهم جميلون؟ لأنهم يتعاطون مع الحياة بعفوية، أي أنهم يعيشونها فقط ولا يحاولون فهمها كما لا يحاولون فهم أنفسهم، ولو كانوا يحيكون مآمرات لبعضهم البعض.. نعم هذا محتمل.. لكنهم عفويون مع الحياة، أما أنا فعلى العكس من ذلك، لقد كنت أحاول فهم الحياة قدر الإمكان.. أحاول فهمها بتفاصيلها الدقيقة الصعبة.. وأحاول فهم نفسي لأنني كنت أظن بأنني جدير بهذه المسألة.. وهذا ما جعلني بائسا.. أمّا الناس فقد كنت أتعاطى معهم بعفوية إلى الحدّ الذي يشعرني بالسّمو، و إلى الحد الذي لا يمكنني فيه اعتبار نفسي غبيا أو ساذجا.. وهذا كان يجعلني أحس بالراحة في قرارة نفسي، رغم الخيبات التي جنيتها طيلة حياتي.
لكن الخيبة لم يعد وقعها خفيفا على نفسي كما في السابق، بل أصبحت تشكّل عبئاً ثقيلا لا أقدر على حمله، وأصبح عندئذٍ كل موقف مزعج يحدث معي يكلّفني جهدا نفسيا كبيرا، فأسرع لحبس نفسي في الغرفة وأغرق في الكآبة.

لقد صرت أقطع أميالا طويلة في البحث عن عناوين الناس من أجل

تسليمهم الرسائل والطرود الّلعينة، وما كان يحزّ في نفسي، تلك المعاملة السيئة التي يقابلني بها البعض، فصرت أدخل في شجارات باستمرار، لكنني كنت ألوم نفسي على تلك الشجارات مبرّرا ذلك لنفسي بأنني كاره لطبيعة هذا العمل، وهو ما جعلني أتعصّب بسرعة وأجعل من الحبة قبة، لكن أولئك الناس ملاعين وقليلي الشرف أيضا، إنّ المرء ليستغرب من تصرفاتهم داخل المؤسسة وتلك اللّيونة والطيبة والدماثة، وما إن يحلّ المرء عند أبواب منازلهم حتى يغدون وحوشا.. ولكم حدث معي مرارا أن طرقت أبواب منازل خرج إليّ أصحابها مكفهرّي الوجوه منزعجين من دقدقتي كأنني أفسد سكينتهم.. إنّ الأمر بحق لا يحتمل.

حتى مظهري بات أقل أناقة مما كان عليه يوم كنت أعمل بالمكتب، لأنّني أهملت مظهري إلى حد كبير، ذلك أنني اعتقدت بأنه لا جدوى منه بعد الآن، كذلك المشي لساعات طويلة تسبّب في اهتراء أحذيتي وبناطيلي، التي رثّت من فرط المشي والغبار والتعرّض لظروف الجو القاسية، على أنّ الحال لم يكن ليسمح باقتناء ملابس جديدة في كل فترة.. كما أنني لم أعد أهتم بشيء من هذا.. لأن شيئا لم يعد يبعث على الاهتمام..

ومع ذلك فقد كان سوء مظهري يمزقني ويقطّعني أشلاءً عندما أعود إلى المؤسسة في كل مساء، وأجد السيد وحيد يبرق نظافة وأناقة ورائحة العطر الشذي تفوح من قميصه.. فألقي نظرة على حذائي وبنطالي الملطخان بالوحل، وأشتمّ رائحة العرق تفوح مني، لكنني

أتقبّل ذلك.. أتقبّله مع ذلك.. لكن الشيء الذي لم أطقه بتاتا، وهذا ما لن أتقبّله أبدًا.. هو أنني عندما كنت أدخل إلى المؤسسة في كل أمسية أجد السيد وحيد وصوفيا مجتمعين ويتبادلان الحديث، أحيانا يضحكان ويمرحان.. وأحيانا من دون ضحك.. لكن مجرّد اجتماعهما كان يكفي لجعل يومي كله سيئا.. فأتحوّل إلى وغد مجنون وأتجرّد من كل قيمي وأخلاقي.

حتّى صوفيا تبدّلت.. تبدّلت نظراتها إلي.. أصبحت تنفر مني ..لقد أصبحت تهرب من وجودي.. يعني بضعة أيام من البعد كانت كفيلة بتسطيح العلاقة بيني وبينها، بل وتكاد تنقطع.. لكن ليس البعد هو السّبب اليقين، إنما السّبب في مظهري الذي بات سيئا.. لقد لاحظت بأنني أبدو بمظهر سيئ أفقدني أناقتي التي عهدتها.. وكان يلوح لي بأنها تراني بنفس الصورة التي أرى بها نفسي.

لقد كانت معجبة بمظهري وأناقتي ولم تكن معجبة بشخصي وروحي.. هذه هي الحقيقة.. ولا يوجد غير هذا.. إذ على المرء أن يتقبّل الحقيقة مهما كانت قاسية..

لا أريد أن أكذب على نفسي بعد الآن، ولن أجلد نفسي بسبب أناس خسيسين، نعم إنّ جميع الشجارات التي دخلت فيها أثناء مزاولتي لعملي لم أكن السبب فيها، بل كانوا هم.. هم من حاولوا إهانتي والتقليل من شأني.. أَو يملك المرء لنفسه أن يهان دون أن يحرّك ساكنا أو أن يدفع عن نفسه؟.. فمنذ يومين أهانني رجل إذ مزّق الرسالة ورماها في وجهي، وأخبرني بالحرف الواحد "اذهب و لا

تعد إلى هنا مجددا".. أوَ يقدر المرء أن يسمع شيئا كهذا ويبقى مكتوف اليدين؟ لكنني وبقدر ما كنت بائسا كارها في تلك الفترة من حياتي، إلّا أنني لم أكن ذليل النفس أبدا.. بل كنت.. ولطالما كنت.. مقاتلا في سبيل عزتي و كرامتي.. ولم أكن لأسمح لأي أحد مهما كان، أن يتجاوز احترامي ويتجرّأ على إذلالي وإهانتي.

وقد كان هذا الرجل يكبرني سنّا وحجما، وكان يرتدي بذلة رسمية، فمضى يأخذ معي الحديث بزهوّ واستكبار فأثار اشمئزازي، غير أنه أثار حفيظتي وغضبي عندما مزّق البرقيّة ورماها في وجهي.. كأنه يوجّه جامّ غضبه نحوي.. فما وجدت إلّا أن سببته وشتمته، ولمّا أخبرني بأن لا أعود إلى هنا مجددا جنّ جنوني ولم أعي بنفسي حتى وجدتني قبضته من ربطة عنقه وطرحته أرضا، وفي وسط الصراخ دار حولنا الناس وحضر شرطي دوّن أسماءنا، ولم يكن يهمّني شيء.. لم تكن تهمّني الشرطة أو أي مآل يمكن أن تصل إليه الواقعة.. بل كل ما كان يهمّني أنني صنت كرامتي وحفظت احترامي أمام ذلك القذر الخسيس..

والحال أنني تعبت.. تعبت من هؤلاء الحيوانات الذين لا تنفع معهم لا دماثة ولا طيبة ولا احترام، لقد كرهت الناس فعلا كما سبق و أن أخبرتكم.. وكرهت عملي لأنه بات يحتّم علي التعاطي مع هؤلاء الناس.. كل يوم.. كرهت ابتعادي المحتوم عن صوفيا.. كثيرا ما كنت أشرد بذهني بينما أجول الشوارع.. متذمرا من حالي.. وما أصبحت عليه.. أفكّر بأسف.. وحسرة من الشرور التي مارسها

ضدي السيد وحيد.. والألم الذي سبّبته لي صوفيا.. مع أنني كنت أكذب على نفسي فيما يتعلق بصوفيا بخلق بعض الأمل.. لكن هذا هو الأمل في النهاية.. أن تستمر في الكذب على نفسك.

شعرت بالخزي من نفسي عندما تذكرت اليوم الذي أخبرتني برائحة العطر الشذية التي يضعها صاحب محل بيع الفساتين وهرعت كالأبله لاقتنائها، ويوم كنت أفتعل الدخول معها في نقاشات ذات مستوى عالي بغية جذبها والاستمتاع بالحديث.. لكم كان هذا يشعرني بالخزي.. أمّا يوم الحفل.. فذلك ما كان يشعرني بالرغبة في غرس رأسي في الرّوث.. يا إلهي كيف لهذه المشاهد أن تغدو أسوء الذكريات؟ مع أنه كان بالإمكان أن تصبح أجملها؟.. ذكريات سيئة مخزية.. سيئة ومخزية ..

كنت أفكر كثيرا.. أفكر في حل ينتشلني من اللّعنة التي وقعت على رأسي.. لأنّ تلك اللعنة أفقدتني السيطرة على مشاعري وعلى ضبط نفسي.. وقد كنت أحسّ في فترات ما بعَتَه أقرب ما يكون إلى الجنون.. كأنني فقدت جزءا مهمّا من عقلي أو ابتدأت في فقدانه.. لكنني فكّرت بعد هذا تفكيرا شجاعا وقرّرت أن أطلب من المديرة أن تعفيني من مهام التوصيل، وأن أختلق لها سببا مقنعا.. سبب لا يرتبط بي شخصيا بل مرتبط بالعمل ذاته، وذهبت ذات أمسية وكلّي عزيمة على أن أقنعها في هذه المرّة.. أقنعها بأنني غير لائق بمهام التوصيل هذه، على أنني لم أكن لأنوي بأن أخيّرها بين أن ترجعني لمهامي المكتبية أو أقدم استقالتي، لأنه لم يكن لي أن أستقيل ولم أُرد

بتاتا أن أستقيل، بل كان كل ما أردته أن أبقى بجوار صوفيا.. بجوارها فقط، وبإمكان المديرة إذا اقتضى الأمر تحويل السيد وحيد للضرورة أو حتى الإتيان بموظف جديد تكلّفه بمهام التوصيل.

دخلت المؤسسة وقد كنت متعرّقا من فرط ما تسارعت خطواتي، ألقيت السلام فإذا بالجميع ينظر إليّ بنظرة غريبة والسكون يملأ المكان وكانت وجوههم متسمرة فيّ، فمضيت أتفحّص نفسي لربما حلّ بي أمر لم ألاحظه، إلّا أنه لم يكن فيّ شيء ملفت! فتملّكتني في تلك اللحظة مشاعر الريبة والشك في نفسي، وفكرت في أن أسأل عن ماذا يجري لكنني تراجعت بعدها، لأنني اعتقدت أيضا بأنني أتوهّم هذا فقط وأن كل شيء على ما يرام، وأن الأمور تبدو كذلك فقط لأنني مقبل على طلب شيء مصيري من المديرة ..هذا الشيء مصيري فقط بالنسبة لي...لذلك توهّمت هذا.. توهّمت بأن الجميع يعرف ما سأقوله للمديرة، بعد هنيهة فتح باب مكتب المديرة فاستدار الجميع واستدرت كذلك، فخرج رجل من مكتبها، و ما إن رآني حتى سمّر عينيه صوبي، ولما رأيته امتقع وجهي واخضرّ.. وبقيت واقفا كالخشبة متجمّدا في ذهول ..إذ هو نفس الرجل الذي تشاجرت معه.. الذي مزّق البرقيّة ورماها في وجهي! ثم خرج مبتسما مغتبطا بينما كانت المديرة تودّعه باحترام وإجلال كبيرين..

أدركت حينها بأن الرجل قد جاء ليشتكيني للمديرة، كما أدركت سبب تلك النظرات التي رمقني بها الجميع عندما دخلت، فلم يكن وهمًا عندئذٍ، بل ثمة شيء ما حدث ويبدو أن أمر الرجل لن يمر

مرور الكرام.
استدعتني المديرة إلى مكتبها حينها، وقبل أن تبدأ بالحديث كانت ملامح وجهها تخبرني بأنني ارتكبت جرما لا يغتفر، فدخلت في نوبة من التوتر والقلق والخجل وجلست على أريكة الضيوف أنتظر ما ستخبرني به.
- حسنا قل لي يا سيدي، ما أخبار العمل عندك؟ هل الأمور على ما يرام؟
قلت لها متنحنحا:
- نعم نعم كل شيء جيد، كل شيء على أحسن ما يرام.. رغم بعض العقبات.. عقبات كثيرة يا سيادة المديرة..
- وما هي هذه العقبات؟
- نعم عقبات.. أنت تعرفين هذا، يعني عناوين غامضة وصعوبات كبيرة في إيجاد المساكن.. لكن الأمر طبيعي.. البدايات غالبا ما تكون صعبة ومتعبة، لكن بعد ذلك يتأقلم المرء..نعم يتأقلم.. حتمًا سيتأقلم..
قاطعتني قائلة:
- هل تدري بأنك ارتكبت خطأ جسيمًا؟.. جسيمًا جدًّا
- ماذا؟ خطأ! وأي خطأ هذا يا سيادة المديرة.. وقد اخضرّ وجهي من شدة الخجل ومن فرط ما كانت المديرة مركزة عينيها في عيناي..
- نعم ارتكبت خطأ جسيما باعتدائك على ذلك الرجل.. ذلك الرجل الذي كان هنا توّا.. أو لم تتعرف إليه؟

- بلى بلى لقد عرفته.. لكنني لم أرتكب خطأ يا سيادة المديرة.. لقد أراد إهانتي وإذلالي أمام الناس.. أراد كسر كرامتي.. لقد مزّق البرقيّة ورماها في وجهي ثم طردني.. طردني كما تطرد القطط.. نعم يا سيادة المديرة إنها الحقيقة أقسم لك أنها الحقيقة.

- ومع ذلك كان عليك أن تمتص غضبك فأنت في أثناء تأدية مهامك.. ما كان عليك الاعتداء على الرجل شتما وضربا.. وماذا لو مزّق الرسالة.. فليمزّقها.. هو حرّ.. هل تدري من يكون ذلك الرجل؟.. هل تدري من يكون؟.. إنه رجل أعمال كبير.. إنه يملك نصف المدينة يا رجل، بل نصف البلد يملكه.. ولو أراد أن يهدم الدنيا فوق رؤوسنا لفعل.. وقد يصل الأمر حتى لغلق مؤسستنا.. هل أنت واعٍ بما فعلت؟ هل أنت في كامل عقلك؟ أوووف.

أنا آسفة.. لكنني مجبرة كل الإجبار، لأبلغك بأنه عليك المغادرة...

- ماذا!! هل تقولين بأنك تفصلينني يا سيادة المديرة؟

- نعم، أنا آسفة أيضا لأخبرك بأن هذا آخر كلام عندي عليك أن تكون متفهّما..

- لكن.. لكنه ليس ذنبي.. إنني لم أرتكب شيئا يستحق.. حسنا حسنا هل تدرين يا سيادة المديرة ما الذي دفعه إلى التقليل من شأني؟ ليس بسبب البرقية.. حتمًا ليس بسببها أنا أعرف ذلك.. بل السبب أنه رأى ملامح التعاسة والكآبة على وجهي فاحتقرني من أجل ذلك، لأنني كنت في الفترة الأخيرة أتخبّط في مشاكل ..مشاكل كبيرة.. جعلتني محزونا وكان حزني ظاهرا للعيان.. لهذا احتقرني..

احتقرني كذلك من أجل مظهري.. من أجل ملابسي التي كانت تبدو متسخة بسبب المشي في الوحل لساعات طويلة.. أنت تعرفين طبيعة مهام التوصيل كيف تجعل مظهر المرء ..وهو احتقرني لهذا السبب.. وانتفض في وجهي.. انتفض في وجهي وعاملني باستكبار شديد، لذلك تعصّبت وشتمته.. لكنني لم أكن أنوي الاعتداء عليه ضربا إلاّ لأنه طردني بطريقة مشينة، وقد فعل هذا لأنه كان متكبّرا ومتعجرفا للحد الذي لا يطاق.. هل فهمتِ الآن يا سيادة المديرة.. هل فهمتِ الأمر بوضوح؟

- هل أنت جاد أم أنك تهذي؟.. إني لا أجد علاقة بين ما قلته وبين الخطأ الذي ارتكبته، يبدو أن مشاكلك هذه أثرت عليك كثيرا.. ثم ما علاقة مشاكلك هذه بعملك؟

- لا تجدين علاقة! كيف ..كيف يا سيادة المديرة؟.. آه ربما وصفت لك الواقعة بطريقة غامضة حسنا حسنا..إنّ هذا الرجل احتقرني من أول وَهلة بسبب مظهري الخارجي، ذلك أنه متكبر و...

- أرجو أن تتفهّم الأمر لو سمحت، لم يعد مهمّا ما ستقوله.. قضي الأمر، عليك المغادرة.

كمد وجهي وجحظت عيناي وشعرت بصدمة.. صدمة كاد يقف قلبي لها، نكست رأسي ثم وقفت ومضيت مجرجرا جسدي إلى خارج مكتب المديرة، وما إن خرجت حتى وقعت عيناي على زملائي، وقد كانوا يقفون في صف واحد، و كان يبدو على وجوههم بأنهم قد سمعوا كل شيء مما دار بيني وبين المديرة، سمّروا أعينهم فيّ

دون أن يقول أحدهم شيئا.. دون أن يتقدّم أحد منهم و يربت على كتفي لمسة مواساة.. تمنيت لو تقدمت صوفيا في تلك اللحظة وقالت شيئا أشعر معه بأنني لست وحيدا وأن صوفيا لم تخيبني إذ وقفت ومعي عندما ظلمت.. على الأقل تبيّن تعاطفها معي ولو على سبيل الشفقة.. تمنيت لو فعلت مريم ذلك أيضا لأنني لم أسبب لها أيّ أذى مذ عرفتها، لكنها لم تفعل بل اكتفت بالمشاهدة.. كما لو كانت تشاهد أحدهم يغرق دون أن تحرّك ساكنا، تمنيت أن يتقدّم إليّ السيد وحيد وأن يبدي على الأقل امتعاضه مما حدث معي وأن يربت على كتفي ويقول لا عليك.. على الأقل كنت سأغفر له كل ما فعله بي.. أقسم أنني سأغفر له كل شيء لو وضع يده على كتفي أو قال كلاما فيه ذرّة عطف واحدة.. لكنه لم يفعل.. الجميع لم يفعل.. بل اكتفوا بالمشاهدة حتى خيّل إلي في لحظة بأنهم يستمتعون.. يستمتعون بمشاهدة لقطة تراجيدية.. لا يرونها سوى في السنما.. وقد مزقتني الخيبة حينها.. مزقتني كثيرا وتألمت.. تألمت لأنني كنت أكنّ لهم مشاعر المحبة الصادقة، حتى السيد وحيد الذي لطالما اعتبرته عدوّي وحقدت عليه لا لسبب، إلاّ لأنه كان يحاول إبعادي عن صوفيا بكامل استطاعته، لكنني مع ذلك كنت مستعدا لأسامحه.. نعم.. أقسم أنني كنت مستعدا لأسامحه وأغفر له من كل قلبي، إذا ما أتى وطلب مني ذلك.. وهذا هو شعوري الصادق.

مرّت زهاء شهرين منذ طردي من العمل، ولم يحاول أحد من زملائي الاتصال بي أو الاطمئنان على حالي، وهذا ما زادني كآبة،

كنت حابسا نفسي في الغرفة طيلة الشهرين أشرب السجائر بشراهة، لقد كنت أستهلك علبتين في اليوم الواحد بسبب الوحدة والعزلة التي غلّفتُ بها نفسي، وقد كنت أعيش في قذارة نفسية وفكرية.. تلك القذارة التي بقيت معي من أول يوم كرهت فيه نفسي، وسرعان ما تحوّلت تلك القذارة إلى قذارة مادية، حيث أصبحت غرفتي كالإسطبل وعمّت الفوضى والرائحة النتنة أرجاءها.. وكانت أرضيتها ممتلئة بأعقاب السجائر وقارورات المياه الفارغة المرمية في كل مكان.. وكنت أتعمّد تركها متسخة، بل كنت لا أريد تنظيفها كي أشعر بالمزيد من القذارة.. لأنّ تلك القذارة النفسية والمادية التي صنعتها كانت تبعث في نفسي اللّذة.. اللّذة والارتياح.

ورغم ذلك.. رغم كل ما فعلته بنفسي.. فإنني لم أتحمل الهزيمة، كان شيئا ما في قرارة نفسي يدفعني للنهوض وإعادة البناء.. أو الترميم على الأقل، لأنّ ضميري لم يمت.. وهو الوحيد الذي كنت متأكدا من أنه لن يموت ولن يفسد مهما فسدت نفسي وفسد كل شيء.. ذلك ضميري الذي أوقعني في الكثير من المتاعب، لكنه كان يعمل أيضا على تعديل سكّة حياتي إلى الاتجاه الصحيح، فقرّرت حينئذٍ وتحت وطأة إلحاح ضميري بأن أزور طبيبا نفسيا بغية إنقاذي ممّا أنا فيه ..بغية انتشالي من القذارة التي غرقت فيها.. لأنني لم أعد أحتمل نفسي وكان عزائي الوحيد حبة دواء يمنحها لي الطبيب تجعلني إنسانا عاديا في لحظة.. لقد كان أقصى حلمي بأن أغدو إنسانا عاديا.. وهل يعدّ شيئا مبالغا فيه لو حلم أحدهم بأن يكون إنسانا

عاديا؟ تلك الحبة القادرة على أن تقضي على ذلك الجزء المنهِك والمتعب الذي استقرّ في دماغي.. والذي بات يزيد نشاطه يوما بعد يوم..

لكنني فشلت في ذلك.. صدقوني لقد فشلت، وسبب فشلي ليس الطبيب، بل كذبي على الطبيب، لأنه كل ما كان يسألني سؤالا إلاّ وأكذب عليه.. وكان يريد بتلك الأسئلة تشخيص حالتي.. لكنني كذبت عليه، لا سبب إلّا لأنني شعرت بالخجل لحظتها.. شعرت بالخجل لدرجة أنني أخفيت عنه أمر خجلي كذلك.. وشعرت بالخزي والعار عندما فكّرت بأن أصارحه بجميع مشاعري.. شعرت بالخزي كثيرا.. وفكّرت في احتمالية أن يحتقرني عندما أخبره بما أفكّر فيه و ما أشعر به.. مع أنني كنت مدركا بأنه طبيب متمرّس ولن يحتقرني إذا أخبرته، لكنني لم أجرؤ على إخباره.. خشية أن يحتقرني مع ذلك.. وهذا الشعور كان أقوى وأرجح عندي من شعوري بأنه سيتفهّم ولن يحتقرني.

وقد وصف لي دواءً، لكنه لم يكن كما تخيلته، ذلك أنه دواء يتطلب فترة طويلة من الزمن كي يؤدي مفعوله كاملا.. وهذا كان سببا كافيا ليجعلني أتركه من أول يوم تناولته فيه.. لأنني كنت بحاجة إلى دواء سريع الفعالية.. كنت بحاجة إلى التخلص من ذلك الجزء المزعج في عقلي بسرعة.. وبطريقة مستعجلة لأنني لم أعد أحتمل أي شيء، بيد أنني وجدت لنفسي متنفسا بسيطا يحقق لي بعض الراحة، عندما صرت أخرج ليلا وأقوم بجولة صغيرة في أرجاء المدينة، وقد

كان التجوّل ليلًا يضع في نفسي وقلبي شيئا من السكينة والهدوء والراحة.. حتى أنني صرت أنام بسهولة بمجرد الاستلقاء على السرير.

وفي إحدى الليالي، بينما كنت جالسا في محطة نقل المسافرين، كانت الأجواء شبه خالية إذ لا تكاد ترى مخلوقا.. سوى بعض القطط تنهش أكياس القمامة، سمعت قهقهات من بعيد، كان هناك رجلان قادمان كلاهما يضع يده فوق رقبة الآخر متعانقين، وهما يتقدمان بخطوات متأرجحة لاح لي أنهما مخموران، وهما ينشدان "لا تحزني يا عزيزتي غدا سيأتي الصباح.. سيأتي الصباح المشرق وآخذك بعيدا هناك.. بعيدا عن الأعداء. .لا تحزني يا عزيزتي أرجوك لا تحزني.. سيأتي الصباح المشرق.. وأنتشلك كما ينتشل الإعصار الأشجار" ثم مضيا بجانبي دون أن ينتبها لوجودي، وكانت علامات السعادة والغبطة بادية على وجهيهما، وبقيت أحملق فيهما وأستمع لأنشودتهما الرائعة حتى اختفى أثرهما، وقد كنت أستمع لهما مستمتعا.. لقد صنع هذان الرجلان ابتسامة جميلة على وجهي لدرجة أنني بقيت على مزاج حسن طيلة تلك الليلة، وقد عدت في الليلة الموالية إلى محطة المسافرين وجلست في نفس المقعد الذي جلست فيه الليلة الفارطة، ثم الليلة التي بعدها.. والليلة التي بعدها.. شيء ما كان يدفعني للتوجه هناك.. والجلوس هناك، لقد شعرت براحة في ذلك المكان كما لو أصبح من أماكني المفضلة.

وفي إحدى الليالي الباردات، توجّهت إلى مقعدي المفضل وجلست

قرابة الساعة من الزمن، لكنني شعرت بالملل بعدها، فمضيت أمشي في ذلك الشارع الطويل، أستمتع بالهدوء الليلي وبالهواء النقي، ثم لمحت حانة على الجهة الشمالية للطريق، ففكرت بأن ألج إليها وأمضي بعض الوقت عسى أن أحقق بعض السعادة.. تلك السعادة التي كانت متوهجة في وجهي الرّجلين ذات ليلة.. تردّدتُ قليلا ثم غالبت نفسي و دخلت أخيرا..

كانت القاعة واسعة بالقدر الذي يمكن فيه للمرأ رؤية وجوه الزبائن المتواجدين، رغم أن الإنارة كانت ضعيفة بيد أنها كافية ليرى المرء الوجوه بما يكفي من الدّقة، العديد من الطاولات الخشبية الدائرية موضوعة بشكل فوضوي، كل طاولة بكرسيين متقابلين، وهناك على الجهة الشمالية للقاعة منصّة خشبية طويلة بنصف القاعة تقريبا، ومرتفعة ارتفاعا بطول صبي، ذات سطح رخامي أبيض ناصع، كان يقف وراءها رجل يبدو في سنّ ما بين الخامسة والأربعين والثامنة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، وجهه أصفر منتفخ مزيّت يبرق تحت الأضواء التي كانت فوق رأسه الأصلع، وكان واقفا مسندا كوعيه الإثنين على المنصّة يراقب الجميع، لاح لي أنه صاحب الحانة، اخترت طاولة هناك في زاوية شبه مظلمة وجلست جلسة متردّدة.. وكلّي ذعر وذهول.. من فرط ما سمعته عن هذه الأماكن من قبل وكيف هي قذرة والناس الذين يتردّدون هناك قذرون وأشرار، حتى وجدت نفسي بينهم.. يا لها من غريبة الأيام أين يمكن أن تسوق المرء.. فمن جلسة المقهى والشاي

بالنعناع.. إلى الحانة!.. يا لوقاحتي وقلة أصلي وحيائي.. لكن لا علينا.. لا علينا نحن لم نفعل شيئا يستحق.. لم نفعل شيئا سوى أننا جلسنا في مكان هادئ.. فقط الجلوس، نتوق من خلال ذلك إلى بعض السكينة.. بعض السكينة فقط ..أيعدّ هذا جرما؟ ثم ما بهم هؤلاء الناس.. نعم ما بهم؟ أوليسوا بشرا مثلنا؟ لماذا يتحتّم علينا أن نضع لأنفسنا منزلة عالية بينما نضعهم في منزلة سفلية لمجرد أنهم يتردّدون على الحانات..

إذ تقدّم نحوي شاب بخطوات متسارعة توحي بالنشاط والحيوية، ولما اقترب مني لاح لي أنه في مثل سني أو يزيد قليلا، نكس رأسه وانخفض بالجزء العلوي من جسده قليلا وقال:

- مرحبا بك يا سيدي ماذا تريد أن تشرب؟

انتابني الذعر والفزع وجحظت عيناي في وجهه من عظمة ما سمعته أي كلمة -ماذا تشرب-وأنا غير عارف ماذا سأشرب بالفعل.

قلت له بنبرة خجولة مع ابتسامة مزيفة:

- أحضر لي كأسا مما تشتهي أنت، دعنا نجرب الشراب المفضل لديك.

ابتسم ابتسامة عفوية وتراكمت على وجهه ملامح الخجل ثم قال:

- المعذرة يا سيدي الكريم.. المعذرة أنا لا أشرب.

امتقع وجهي فجأة واحترت عن الجواب ثم قلت متحشرجا:

- آه، حقا! جميل جميل.. لكم هو رائع أن لا يشرب المرء هذا السمّ الّلعين.. أنت محق في ذلك.. إذن أحضر لي أيّ شراب.. أيّ شراب

تراه جيدا.. جيدا و منعشا رجاءً..

- حسنا.. حسنا أيها السيد الكريم سأعود فورا..

فجأة سُمع دوي، كأنّ أحدهم رفع مطرقة وضرب بها الطاولة، استدار الجميع باتجاه صوت الدّوي، إذ هو رجل يجلس في الزاوية المقابلة، رجل أسمر يرتدي معطفا سميكا بلون أخضر عسكري بدأ يتحوّل إلى الأبيض من كثرة الغسيل، ومن شدة نحافته يبدو المعطف ضخما جدا.. أما هو فلا تكاد ترى له طرفا من جسده غير رأسه الصغير وشعره المشعث، كان ينظر للجميع بنظرة لامبالاة..

انتصب صاحب الحانة وبدا كالثور الغاضب، وجّه نظره باتجاه ذلك الرجل قائلا:

- هاي أنت.. ماذا تحسب نفسك فاعلا؟.. هذا المكان غير مخصص لضرب الطاولات، الزم حدودك وإلا رميتك خارجا كما ترمى الكلاب.

لم يعر الرجل أي انتباه لما قاله صاحب الحانة، فاشتد غضب هذا الأخير وبدا في أوج هيجانه، ثم خرج من وراء المنصة وتقدم وسط القاعة بينما الجميع يراقب في صمت، ثم أشار بسبابته إلى الرجل:

- اسمع يا حثالة، أنت في حانة هل تفهم؟ لست في بيتك حتى تضرب الطاولة، لو كرّرتها مجددا سأبتر يدك القذرة، هل تفهم هذا أيها الحثالة.. هل تفهم؟

ثم مضى يعود أدراجه وهو يدمدم:

- كلب، لعين، حقير.. كل من تطرده زوجته من المنزل يأتي هنا

ليفسد مزاجي.. تبّا لهؤلاء الملاعين.
أحضر لي النادل زجاجة تشبه زجاجات العطر ثم فتحها وملأ كأسا، تمنّى لي الصحة وغادر، بينما مضيت أتأمل ما بداخل الكأس تارة أقربه من فمي وتارة أبعده، ثم مرّ بذاكرتي وميض رأيت فيه صورة السيد وحيد جالسا رفقة صوفيا يتضاحكان ويتحادثان، فرفعت الكأس بقوة وأفرغته في جوفي مرة واحدة، جحظت عيناي وكادتا تخرجان من مكانهما، شعرت برغبة في الاستفراغ، غير أنني تمالكت نفسي حتى زال ذلك بعد هنيهة.
وقف الرجل صاحب المعطف الأخضر وقفة كاملة ثم أزاح كرسيه إلى ورائه، ورجع خطوة للوراء كما لو كان يبحث عن توازنه، ووجّه كلامه نحو صاحب الحانة:
- أنت محق يا سيدي.. آآآه لكم أنت محق في كل كلمة قلتها، أقسم على ذلك.. حتى وصفي بالكلب كنت محقّا فيه كذلك، لطالما أدركت أنني أشبه الكلب إلى حد كبير، لقد اعتدت المذلّة يا سيدي واعتدت أن يهينني الناس، وإني لأجد في ذلك شيئا طبيعيا عاديا.. ولا شك أن المرء يعتاد كل شيء.. كل شيء بما فيه فقدان احترامه.. نعم أنا أقرّ لك بذلك.. أقرّ بذلك لأنني لا أجد عيبا في ذلك، لقد اعتدت فقدان احترامي هل تدري إلى أي حد؟ ثم ضحك مقهقها.. إلى حد أنه لو حاول أحدهم تقديري أو احترامي ووضعي في منزلة عالية صفعته وأبرحته ضربا، ثم أدار رأسه إلى الجلوس موجها كلامه إليهم، هل تدرون أيها السادة بأن مديري ضربني على وجهي

مرة.. نعم لقد صفعني، لأنه وجد ذبابة في القهوة التي أحضرتها له.. نعم.. لقد سمحت لذبابة لعينة أن تسبح في قهوة سيدي، وها أنا أقرّ لكم ثانية أيها السادة بأن مديري كان محقّا كل الحق حينما صفعني، وأنا أستحق ذلك لأنها غلطتي و ذنبي.. غلطتي أنني لم أراقب فنجان القهوة قبل أن أقدّمه له.. وهل يوجد عيب إذا ما اعترف المرء بخطئه.. أبدًا.. إنما هذا عين الفضيلة، ثم ملأ كأسا وارتشف منه رشفة أفرغت نصفه، لنفترض أيها السادة أن مديري تكلّم معي بلباقة، وأخبرني بأنه كان علي أن أتفحّص القهوة قبل أن أحضرها له.. لكنت حتما غير آبه بما قاله.. ولكرّرت نفس الخطأ عدة مرات، لكنه لما صفعني شعرت بمسؤوليتي، كما شعرت بأنه أراد بذلك أن يحميني.. نعم لقد أراد بذلك أن يحميني، فنحن الضعفاء نحنّ ونتوق إلى القوة، بل نعبد القوة و الأقوياء إلى الحدّ الذي نعتبر معه أنفسنا مجرد تابعين خاضعين عبيد، وما من عيب في ذلك صدقوني.. ما من عيب في ذلك..

لطالما اعتبرت نفسي حثالة وجبانا عندما أقف وجها لوجه مع زوجتي نناقش مصروف البيت، ولطالما كنت أنكس رأسي وأتهرّب من مواجهتها كالفأر، فزوجتي امرأة قوية ذات عزيمة، وإني لا أجد في ذلك حرجا أيها السادة ..لا أجد حرجا قطّ.. لأنني أعتبر ذلك مجرّد توازنات طبيعية، إنها امرأة كريمة وصبورة تتحمّلني رغم ذلك.. ورغم كل شيء.. فهي لم تطردني مرّة في حياتها من المنزل.. كما تفضل السيد الكريم المبجل، لم تطردني من منزلها.. المنزل الذي

تملكه.. آه.. آه.. هل تدرون لماذا أعتبر نفسي حثالة وحقيرا كما نعتني السيد الكريم والمبجل؟ ذلك أنني لم أملك شيئا في حياتي.. لم أملك شيئا قطّ.. بل عشت معظم حياتي تابعا للملاك أجري خلفهم من أجل كيس حليب ورغيف خبز.. إني أتأسف لك يا زوجتي العزيزة، أتأسف من كونك تسندين ظهرك على حثالة مثلي، وفوق كل هذا أيها السادة تريد أن تعمل من أجل مساعدتي على تربية أطفالنا، أتدرون ماذا فعلت؟

لقد منحت ساعة ذهبية ثمينة إلى أحد الموظفين الكبار والأقوياء الذين تعرفهم، من أجل أن يوفّر لها وظيفة في العاصمة، من أجل تحسين ظروفنا، تلك الساعة هي أثمن ما تملكه زوجتي المسكينة الحنونة أهدتها لها أختها التي تقيم في فرنسا بمناسبة زواجنا، لكنها تضحي بكل شيء في سبيلنا.. تلك هي عزيزتي أنا أعرفها.

آآه يا أيها السادة آه.. لكم يجد المرء صعوبة في وصف نفسه، لكن على أية حال، فالسيد هناك يعرفني، لقد وصفني بدقة كبيرة ..إنه صائب.. صائب ومحقّ في نعته لي بالنذالة والحقارة..

ثم تعثّر الرجل على كرسي وسقط سقطة ارتطم فيها رأسه بالأرض ولم ينهض بعدها.

بينما نزل عليّ خبر الساعة الذهبية كالصاعقة، وومضت في ذهني لقطة الحفل، حفل ميلاد صوفيا أين قدّم السيد وحيد تلك الساعة الذهبية الجميلة لصوفيا، ثم انتابني شعور بالشك في طريقة حصول السيد وحيد على تلك الساعة الثمينة لاسيّما وأنها أثمن من أن

يشتريها موظف عادي كالسيد وحيد.
شعرت بدوار خفيف، أشعلت سيجارة ومضيت أفكّر غير واعٍ بما حولي كما لو أنني أسبح في الفضاء، ثم سكبت كأسا شربت نصفه ووضعته على المائدة.. بدأت أفقد الوعي تدريجيا، ثم فكّرت في أن أوقظ ذلك الرجل وأحمله إلى الخارج أتمشى برفقته قليلا لأستفسر عن أمر تلك الساعة، وقفت منتصبا وتوجهت نحو الرجل ضاربا على رأسه بخفة ليستيقظ، وفي تلك اللحظة شعرت كما لو تبدّد كل ذلك الخجل والتردد، وصرت أكثر جرأة ولا مبالاة مما كنت عليه، استيقظ الرجل فأسندته على كتفي وجرجرته إلى الخارج وقد كان يهذي بكلمات غير مفهومة من فرط السكر، ومضيت أسأله بإلحاح:
قل لي يا سيدي لمن منحت زوجتك ساعتها الثمينة؟ هل تعرف الشخص الذي منحته إيّاها؟
أعرفه؟ لو كنت أعرفه لقتلته.
حسنا.. إذن هل هو من مدينتنا؟
لا.. قالت أنه من العاصمة.. لكن وما شأنك أنت بهذا اتركني يا حقير تفووو..
معذرة معذرة يا سيدي.. نحن نتسلى فقط ها.. اتفقنا.. اعتبرني صديقا أرجوك لا داعي للغضب.
ثم توقف عن المشي وأراد أن ينام حيث وقف، لكنني ألحّيت عليه في التقدم.. فراح يكمل معي التقدم وهو يلقي وابلا من اللّعنات والشتائم..

حسنا إذن قلت بأنه من العاصمة، وفي أي مجال يعمل هذا الموظف الكبير؟
لا أعرف.. لا أعرف زوجتي قالت بأنه موظف كبير.. هذا ما أعرفه.. أصمت الآن عليك اللّعنة..
تركته يجرجر جسده بخطوات حيث يمكن لحصى صغيرة أن تعثره و تسقطه أرضا، بينما مضيت ألحظه من بعيد وأقتفي أثره حتى استقر في أحد الشوارع ووقف عند باب يدقه، عرفت حينئذٍ عنوانه وعزمت أن أعود في اليوم الموالي كي أستفسر عن أمر تلك الساعة.
وفي الصباح وقفت عند الباب ثم دققته بحذر، وقد كنت أعتقد حينها بأنني سأجد ذلك الرجل في كامل قواه العقلية فأحثّه على إخباري بالحقيقة، بيد أنه خرجت إلي سيدة، فخجلت في بادئ الأمر لكنني قلت لنفسي بأنه يجب علي أن أعرف الحقيقة مهما كلفني الأمر..
- صباح الخير يا سيدتي..
- صباح الخير ماذا تريد؟
- في الحقيقة.. أنا مقرّب من زوجك هل بإمكانك مناداته لو سمحتي..
- زوجي غير موجود..
وهمّت بإغلاق الباب في وجهي.. لكنني منعتها.
- قلت لك زوجي غير موجود.. ماذا تريد؟
- حسنا حسنا.. اسمعي يا سيدتي أنا أعلم بأمر الساعة الذهبية التي

سلمتها لذلك الرجل من أجل أن يجد لك وظيفة محترمة، وإني لست هنا من أجل ابتزازك أو شيئا من هذا القبيل.. حاشا لله، ولكنني مصرّ أن أعرف هوية هذا الرجل، وإلّا ستدفعينني إلى إخبار زوجك بالحقيقة..

- وماذا تعرف حتى تخبره؟

- أعرف الكثير بشأن موظفي المواصلات وغيرهم..

امتقع وجهها.. وتلعثم لسانها.. ثم قالت متحشرجة مرتجفة:

- سيقتله يا سيدي..سيقتله و يفضحنا أمام الناس، إنه مجنون أؤكد لك أنه مجنون و يفعل أي شيء تتصوره.. أرجوك لا تخبره.

- حسنا.. حسنا ما اسم ذلك الرجل؟

- لا أعرف اسمه، كل ما أعرفه أنه يعمل في مؤسسة مواصلات كبيرة في العاصمة..

- أها قلت لي يعمل في العاصمة؟ إذن كيف هو شكله، هل هو قصير أم طويل.. في أيّ سنّ يبدو؟

- نعم قصير ونحيف وشعره أسود ممزوج ببياض الشيب، يبدو بين الخامسة والثلاثين والأربعين.

- حسنا هذا يكفي شكرا لك.. أعدك أن لا أخبر أحدا بالأمر..

- لا تخبر زوجي أرجوك.

- لن أخبره.. وداعا.

حسنا إذن السيد وحيد يسلب الضعفاء أملاكهم من أجل جشعه ويعدهم بتسهيل أمورهم، ويوهمهم أنه موظف كبير يعمل

بالعاصمة ..آه أيها الكلب يا لك من نذل وحقير، نعم.. إنّه هو.. من المؤكد أنه هو عينه السيد وحيد القذر، وإلاّ كيف يتفق مرة واحدة لموظف يعمل بالمواصلات ويحوز ساعة ذهبية.. إنّه لمن المؤكد أن يكون السيد وحيد.. أنا أعرفه وأعرف حقارته.. وأعرف بأنه يقدم على فعل مثل هذه القذارات دون أن يطرف له جفن.. حسنا أيها النذل الحقير، تقوم بالقذارات من أجل تحطيمي بكسب قلب صوفيا.. سنرى إذن سيأتي يومك حتمًا.

لكم كانت تلك الجلسة في الحانة شهية.. شهية ومريحة، أقصد راحة العقل.. لا البدن، ذلك الجزء المزعج منه الذي كدّر حياتي، ردعته زجاجة صغيرة.. لقد شعرت بعد أول كأس باتضاح الأفكار في عقلي، تلك الأفكار التي جعلتني أدرك قيمتي أمام نفسي وأمام الناس، لكم هو جميل وشهيّ أن يشعر المرء في لحظة ما بالسمو الذاتي، ذلك الشعور المفاجئ بالسمو، يجعل العمليات العقلية متوازنة تلقائيا، رغم أنّ الأفكار تكون سطحية لكنها أفضل.. أفضل بكثير من التعمّق الذي يجلب المرض واللّعنات، فيشعر المرء من جرّاء ذلك بمحبة وحنان اتجاه الغير، وما ذلك الحب والحنان الذي يشعر به اتجاه الغير في لحظة سمو ذاتي، إلاّ انعكاس مباشر لما يكنّه عندئذٍ، من مشاعر حب وتقدير لذاته..

بيد أنني إنسان مثقف، ولطالما اعتبرت نفسي إنسانا مثقفا، وما كان لي أن أزيل قذارة بقذارة أخرى، أنا مدرك كل الإدراك بأنني ألتجئ إلى قذارة ..لكن ثقافتي هذه لم تمنعني من اعتبار نفسي مريضا

كذلك، على أنني سبق وشعرت في بعض الأوقات بأنني مثقف للحد الذي يمكنني معه تبرير معظم القذارات التي ارتكبها، لكنني كنت أدرك في قرارة نفسي بأنني مخطئ.. إنّما أردت بذلك أن أمنح الحق لنفسي بالكذب على نفسي.. لذلك فأنا أعتبر نفسي مريضا أكثر مما أعتبر نفسي مثقفا، وإلّا فكيف لي أن ألج جحر الثعبان وأنا أعلم بأن ذلك يشكل خطرا على حياتي؟..وأية ثقافة هاته التي تسمح للمرء بقتل نفسه قتلا بطيئا؟..

لكنه المرض.. تلك التشوّهات النفسية.. التي تسبب فيها أناس حقيرون لا يمتّون للإنسانية.. المرض هو ما يدفع المرء للنّبش عن ترياق يحقق له بعض الراحة ولو مؤقتا.. وهذا الترياق وجدته في زجاجة مملوءة بالسم الرحيم.. زجاجة تتفاعل مع المرء بخبث يشبه خبث البشر في كل شيء، أنا أعرفها.. لقد عرفتها جيدا..

بات صاحب الحانة واحدا من رفقاء جلساتي، لأنني صرت أزوره في كل وقت وأقضي عنده وقتا طويلا، وفي بعض المرّات أجد نفسي في القاعة وحيدا، فكان يأتي يجالسني ويحدثني في بعض التفاهات التي كنت أشرد بينما يتحدث عنها، لكنني كنت أدرك بأنه لا يستلطفني لشخصي بقدر ما يستلطف مالي.. وهذا طبع خسيس جعلني أحتقره بعد بضعة أيام فقط.. بل احتقرته من أول يوم أهان فيه ذلك الرجل صاحب المعطف الأخضر.. إذ شعرت بأنه يستقوي على الضعفاء.. لكن شعوري بالراحة والسعادة يومها غطى على شعوري بالحقد والكره اتجاهه.

أما شعوري بتلك السعادة العمياء ومع مرور الأيام فقد بدأ يترنح ويتضاءل شيئا فشيئا، وأصبحت تجتاحني مشاعر الألم أكثر بدل السعادة.. الألم والرغبة في الحديث لوقت طويل، كثيرا ما كنت أفكّر في حالي وما أصبح عليه، والبؤس الذي سبّبه لي السيد وحيد والمديرة وصوفيا.. حتى تراني أكلّم نفسي كالمجنون.. كأنني أخاطب أحدهم...وما كان يزيدني عذابا ويشغل بالي، قصة تلك الساعة الذهبية ..

وفي يوم من الأيام بينما كنت جالسا في الحانة، قرّرت في لحظة مفاجئة ومن دون التفكير في أيّ شيء، بأن أذهب إلى المؤسسة اللّعينة فورا وأطفئ تلك الشعلة التي تحرق روحي في كل يوم، فهرعت إلى الخارج بخطوات مسرعة وقد ازدادت نبضات قلبي تسارعا، وقد كنت أمضي كالمجنون في وسط المارّة، أصطدم بهم مرارا فأرفع يدي اعتذارا دون أن ألتفت أو أتوقف..

على أنني لم أكن أبدو في حالة سكر بيّن، بل كنت مدركا تماما بأنني أبدو شخصا طبيعيا بالنسبة للغير، لكنني وفي نفس الوقت كنت ثملا للحد الذي يجعلني لا أخجل من قول شيء، وهذا ما كنت أنشده في الحقيقة، تلك اللحظة التي يمكنني معها قول أيّ شيء دون الشعور بالخزي والحقارة من أيّة كلمة شائنة أو جارحة قد تبدُر عني.

صرت على بعد أمتار قليلة من المؤسسة، انتابني شعور طفيف بالتردّد ..شعور أقرب إلى الخوف، لكنني غالبت نفسي وفتحت

الباب مقتحما ومضيت بخطوات متسارعة أتفقد الغرف، لكنني لم أجد أحدا، وقفت هنيهة ثم استدرت بجسدي نحو مكتب المديرة، فتحته وأطلّيت برأسي إطلالة الباحث عن أحد ما، فوجدت السيد وحيد واقفا أمام الباب مباشرة كما لو كان ينوي فتحه لكنني سبقته في ذلك، رمقته بنظرة استفزازية مستكبرة حتى رمى ببصره أرضا، ثم التفتُ للجهة اليسرى وقد كانت المديرة تحملق فيّ بنظرة ممتلئة فزعا ورعبا، وكانت صوفيا بجانبها موجّهة أنظارها نحوي كما لو كانت تصب كامل تركيزها عليّ، كانت نظرات صوفيا تشبه تماما نظرات المديرة، غير أنها كانت تحاول في الوقت نفسه أن تصطنع ابتسامة مزيفة وهي تبذل مجهودًا لتحقيق ذلك.. ابتسامة ممتلئة خزيا وأسفا.. كانت تعبّر عنها.. عن ما يختلج نفسها من مشاعر الأسف والخزي.

كان الجميع يحدق بي بنظرات الريبة، تلك التي ما كنت لأقدر على مجابهتها لولا بضعة الكؤوس التي التهمتها منذ حين، ولكان الخجل قد نكس رأسي أرضا، لكنني على العكس من ذلك شعرت بنوع من البطولة والمتعة وأنا أشدّ وجهي كلّ الشّد، وأجول ببصري في أرجاء المكتب دون أن أكترث لأي أحد منهم، لقد ساد الصمت الأرجاء.. ذلك الصمت الذي صنعته متعمّدا كي أراقب دقّات قلوبهم الحقيرة.. كي أراقب ملامح وجوههم القذرة.. أراقبها بينما تنتشر منها رائحة الخزي والعار.. وكانت تنتابني الرغبة في تحطيمها، لقد تعمّدت تعذيبهم بعدم قول أيّ شيء كي لا يعرفوا سبب قدومي،

تعمّدت بثّ الرعب في نفوسهم للحظات.. تلك لحظات الصمت التي كسرتها المديرة عندما سألتني بلهجة ذات أبهة، كأنها اكتشفت استفزازي لهم:

- تبدو كما لو أنك لست على ما يرام، هل ثمة شيء ما؟

أشعلت فيها عيناي وبقيت صامتا كأنني لم أسمع شيئا.

انتابها الهلع ومضت تقول برعب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما به الرجل.. ثم وجّهت نظرها إلى السيد وحيد، ما الذي حدث؟

- لم آتي إلى هنا لأطلب شيئا محددا يا سيدتي، سوى أنني أودّ أن أخبرك وبإلحاح بأنك وللأسف من أحقر الناس الذين مرّوا على حياتي، هل تدرين كيف هذا؟ أكيد تودّين معرفة كيف ذلك.. حسنا، هذا ما أتيت من أجله..

وقفت منتفضة، وضربت بيدها مكتبها الخشبي.. فطارت الأقلام هنا وهناك.. ثم قاطعتها بضحكة شريرة مستفزة..

– لا، لا داعي لهذه الطقوس أيتها السيدة المبجلة، نحن فقط نقول الحقيقة.. عفوا.. أنا أقول الحقيقة، والحقيقة أيتها السيدة المحترمة جزء لا يتجزأ من الجمال.. إنني أشك في كونك تعجبين بجمال الحقيقة! حسنا.. حسنا..

- هل تدرين كيف أنك حقيرة بائسة ومتمرّدة على الشرّ.. أيتها السيدة المبجلة؟

- أخرج من هنا فورا..

تقدمت نحوها وأشرت بسبابتي اتجاهها:
- هل تدرين بأنني لا أمتثل للطّرد في الغالب، مع أنني طردت مرّة على يد حضرتك وامتثلت حينها طوعا لا كرها.. بل إنني ولأكون أصدق معك، إنني لم أطرد في حياتي سوى مرتين وهذه هي المرّة الثانية.. أقسم أنني لم أطرد في حياتي كلها، ذلك أنني أعرف قدر نفسي جيدا، ولا أضع نفسي وسط الأسباب التي تقود للطرد.. وإنني أبذل مجهودا جبارا من أجل ذلك، ومع ذلك أنت طردتني.. طردتني يا سيادة المديرة المبجلة.. من أجل ذلك الرجل التافه الذي يسمّي نفسه رجل أعمال كبير، مع أنه هو من ابتغى إذلالي في بادئ الأمر لكنك ظلمتِ.. ظلمتني لأنك لم تكترثي لما قلته لك، ورحت تبجلين ذلك الحقير لا لشيء سوى أنه غني وذو مقام عالٍ، أما أنا فقد حاولت أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله بغية إنصافي، ومع ذلك فقد دهستني كحشرة.. ولطالما كنت ترينني كحشرة.. أنا أعرف ذلك.. ترينني كحشرة مقززة لأنني فقير، لكنني فقير نبيل ونبلي هذا حال كالشوكة في حلقك، أو لم يكن عبد الرزاق كذلك فقيرا نبيلا؟ لذلك استغنيت عنه.. لأن نبله واحترامه لنفسه وضعك عند حدك ولم يسمح لك بجعله كلبا تابعا لك، إنه لم يكن كلبا في حياته قطّ، كما لم أكن كذلك.
لتعلمي أيتها السيدة المبجلة أنني لست أحقّرك الآن من أجل ردّ اعتباري أو شيئا من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك، فأنا أتمتع بالكثير من الاعتبار الذي استقيته من ذاتي لا من الآخرين، إنني

أحقّرك الآن لأنك أردت لنفسك هذا، عندما اعتقدت بأنني مغفّل، ولم يكن لشيء أن يجعلني أبدو مغفلا سوى الخجل، آه يا سيدتي المبجلة لكم تمنيت أن تفهمي هذا فهما تلقائيا، أن تفهمي بأن الخجل لا يعني البلَه، إنني لا أريد بخجلي هذا المحتوم، أن أبدو أبلها أو مغفلا أو حتى دمثا طيب الشمائل بقدر ما أريد أن أنأى بنفسي عن الأذى، هل بإمكانك أن تفهمي هذا فهما صحيحا؟ هل أدركت الآن بأنني غير قابل للإستغفال إلى حد ما؟ ومع ذلك.. مع كل ما جمعته من تصرفاتك المشينة ونواياك السوداء، إلّا أنني كنت صبورا متفهما، أتذكرين يوم أردت تحويلي إلى العمل في التوصيل؟ وكان ذلك كلّه مرتبا له من طرفك والسيد وحيد، ومع ذلك فقد تجاهلت الأمر كأنني لم أدرِ بالطبخة، لأن احترامي لنفسي يمنعني من الغوص في قذارة مثل التي تفعلانها، حتى طرد عبد الرزاق كان مرتبا له كذلك من طرفك والسيد وحيد.. وإني لم أرَ بحياتي كلها أبشع مما ارتكبتماه في حق ذلك المسكين.. إنه لَأقذر تصرف رأيته في حياتي..

أولا تخجل من نفسك أيها السيد وحيد؟ ألا تخجل من نفسك قل لي ها..؟

شحب وجهه فجأة ومضى يتحشرج:

- كيف.. كيف؟ ماذا تقول.. إلزم حدودك..

- اسمع أيها السيد وحيد، لطالما اعتبرتك مجرّد كلب تابع للمديرة، وكان هذا الأمر واضحا جليا بالنسبة لي.. وقد تساءلت باستمرار عن سبب هذا.. تساءلت تساؤلات بريئة من أجل أن أولّد الرغبة

لدي في احترامك وتقديرك، تساءلت عن سبب كونك تقبل بأن تكون مجرد كلب بدون أدنى احترام لذاتك، لكنني ومع ذلك كنت دائما ما ألتمس لك العذر، فأقول لنفسي لربما فقرك من جعلك تتسول اللقمة ولو على حساب كرامتك وكبريائك، كما أنني أعلم أيها السيد وحيد بأنك مدرك بذاتك تماما.. أنك مدرك كل الإدراك بأنك بهذا تذلّ نفسك وتحطم نبلها من أجل لقمة عيشك هاته، لكنك تختلق مبررات بائسة وتدّعي بذلك أنك تفعل أي شيء يحقق لك مصلحة مادية، وأنت تدرك في قرارة نفسك بأنك بهذا تكذب على نفسك.. فأية مصلحة عظيمة هاته التي تجعل المرء يقبل بأن يكون كلبا؟

اسمع أيها السيد وحيد، إنه لا يهمّني إن كرهتني اليوم بسبب نعتي لك بالكلب، فلطالما كرهتني من أول يوم دخلت فيه المؤسسة، كرهتني كثيرا وكنت تنصب لي الفخاخ وتحاول تسميم الجميع ضدّي.. لكنني و مع ذلك لم أقابلك بالمثل البتّة.. بل وجدت نفسي أتساءل عن سبب كرهك لي، هل تدري أيها السيد وحيد لما أبحث دائما في بواعث التصرفات السيئة؟ لأنني أحب الإنسان كما هو، وأعلم يقينا بأن كل سوء يبدر عنه إنما وراءه حوادث عظيمة مؤلمة، لذلك تجدني أبحث عن الأعذار، بل في بعض الأحيان أختلق الأعذار للذين يقابلونني بالسوء كي لا أكرههم، حتى وإن كنت أعلم بأن هذا يزيد الحمل على نفسي.

إنني لم أكرهك أيها السيد وحيد، لم أكرهك قطّ، لم أكرهك عندما

تأكد لي بأنك تقبل لنفسك بأن تكون كلبا، ولم أكرهك حتى عندما عرفت بأنك تكرهني حد الحقد، ذلك أنني كنت ألتمس لك الأعذار، كنت على دراية بأنك تعاني الكثير من عقد النقص، لقد كانت نظراتك تشي بك.. ومهما حاولت إخفاء ذلك.. فلن تخفيها عني.

لقد كنت تراني كالعدوّ الأبدي فقط لأنني مثقف أحمل شهادة، بينما لم تسعفك الحياة في التدرّج العلمي، وأمضيت نصف حياتك خادما لدى المرحوم، ولطالما كرهت نفسك واحتقرتها من أجل ذلك، وكل تلك الحقارة التي كنت تكنّها في أعماق نفسك رميتها علي، ومع ذلك فكثيرا ما كنت أحاول أن أقزم مسألة الشهادة هاته كي لا أشعرك بالاستياء.. كي أبعد عنك مشاعر الحقد التي تعذّبك أوّلا قبل أن تؤذيني، فأنزل بذلك للمنزلة التي تشعرك بأنك الطّرف الأقوى.

ومع ذلك ورغم كل هذا، فقد حاولت كسري مرارا.. حاولت كسري لأنك لم تتغلب على حقدك الدّفين.. بل كنت ترفض أصلا الدخول في صراع مع حقدك، ذلك أنك مسلّم في قرارة نفسك تسليما مطلقا بأنك بحقدك هذا محق وصادق.. وتعمّدت إيذائي في أكثر من مرّة، لعلّ أبرزها قصة تلك الساعة الجميلة.. تلك الساعة المرصعة خاصة زوجة الحارس..

ورحت أحرّك يداي محاولا وصف جمال تلك الساعة وأراقب في نفس الوقت تحركات ملامح وجهه كي أثبت عليه الواقعة، فامتقع وجهه واتّسعت عيناه، واحمرّ خداه من شدّة الغضب، ثم اقترب مني

ودفعني بكفّه، لكنني بقيت هادئا رغم محاولة استفزازي:
آه أيها السيد وحيد ثمة الكثير من القذارات التي ارتكبتها.. الكثير منها لكني رتبتها لك حسب أولوية كل منها، هل تدري ما هي الأكثر وقعا على نفسي والأكثر ألمـًا؟ يوم خطّطت لفصل عبد الرزاق من أجل تحويلي للتوصيل، وقد اجتهدت لتحقيق هذا، فقط من أجل أن تبعدني عن حبّي.. وهذا ما لم أجد له مبرّرا، لذلك كرهتك، كرهتك لأنك ضربتني في العمق.. وقد نجحت في تدميري بالفعل وجعلي مجرد أشلاء متناثرة، لكن سبب دماري لم يكن في خسارتي للوظيفة إنما خسارتي لحبي، لأنك بفعلك هذا استأصلت شجيرة حبّ كان مقدّرا لها النمو، لقد ارتكبت إثما عظيما وإني لأكرهك وسأحقد عليك ما حييت.. ولتشهد السماء على ذلك..
رفع حاجبيه وشدّ وجهه مبديا امتعاضه:
يا متغطرس يا متعجرف تدّعي الملائكية وأنت شيطان في ثوب ملاك، من أنت حتى تحاكم الجميع ها؟
اسمع اسمع أيها السيد وحيد، لست هنا بصدد محاكمتك أو شيئا من هذا القبيل، حاشا لله.. لكنك غصت عميقا في القذارة وسمحت للسّوء في نفسك بأن يتمادى ويتكاثر.. فانطفأت الفضيلة في قلبك، آه لكم آسف لحالك.. وممن هم على شاكلتك.. أولئك مرضى القلوب..
تسألني من أكون؟
أنا لا شيء، أنا هو العدم ذاته.. أنا مجرّد حيز من الفراغ...مجرّد ظلّ

يتحرك كشبح و يختفي كشبح.. مع نور الشمس...نحن كائنات خيالية زائلة.. كائنات واهمة تعيش الخيال في صورة واقع متعدّد الأزمنة... نحن ظلال أكثر منها كيانات.. لأن الظلّ زائل ولو بعد حين... فكّر بمنطق الزوال هذا، ولا أعتقد أنك ستقترف من الشّرور أبدًا..

سادَ الصمت الأرجاء وتجمّد الجميع في ذهول.. مثبّتين أنظارهم نحوي.. كما لو كان وقع الكلمات جبارا على نفوسهم.. شعرت بذلك.. شعرت في أعماق نفسي بقوة الكلمات الأخيرة التي تلفظت بها، اغرورقت عيناي من فرط الألم الذي استخرجته مني تلك الكلمات، ورُحت أوجّه بصري ناحية صوفيا، دون أن أقول كلمة واحدة، لقد صوّبت عينيها الجميلتين والمغرورقتين بالدموع.. صوّبتها نحو عيناي.. بينما كنت على وشك أن أنطق بشيء ما، لكنني صمتُ كما لو أُجبرت على ذلك من فرط ما قرأته في عينيها، لقد قرأت فيها مزيجا من معاني الأسف والندم والحيرة، ومعاني أخرى مبهمة غير قابلة للوصف الدقيق، كما لو أرادت أن تقول من خلال عينيها:

إلهي...يا إلهي ما الذي فعلته بك، أيّ جرم اقترفته بحقك ..كيف لي أن أتجاهل قلبا يشعّ بياضا وصفاءً كالذي أمامي الآن، أيّ قلب زاهد هذا الذي تحمله بحق السماء؟.. ولازلتَ ماضيا في صمتك حتى اللحظة؟ أو يقدر ذلك القلب الفتيّ أن يحمل كل هذا العذاب والألم؟ لماذا لم تتكلم؟ لماذا لا تتكلم الآن...تكلّم أرجوك.. تكلّم

وامنحني الخلاص، أم أنك تريد بصمتك هذا أن تجلدني؟ لتجلدني إذن.. طالما أنني مذنبة.. لقد أذنبت في حقّك بالفعل.. لأنني كنت على دراية بحبك.. لكنني لم أكترث.. لم أكترث البتّة.. لم أكترث لأنني لم أكن أتخيّل كل هذا الحب المكنون في قلبك ..لقد عميت عن النور الذي يشعّ من سويداء روحك الطيبة.. آواه آواه.. يا طيب الرّوح و السريرة إني أكترث الآن..أكترث بحق..

تمت.